أبطال المسيحية : في الماضي والحاضر

ليليان تراشر

أعظم العجائب المصرية

Celebrating 100 years

Lillian Trasher Orphanage

بقلم

جانيت وجيوف بنج

ليليان تراشر

بمناسبة الاحتفال بمئوية بيت ليليان تراشر بأسيوط

١٩١١ - ٢٠١١

نقدم لأصدقائنا هذا الكتاب في طبعته الخاصة، للشكر لإلهنا الصالح على رعايته للأطفال والأرامل والكفيفات عبر مائة عام (وتقديراً لرعاة وشعب الكنائس المختلفة، الذين عضدوا هذه الرسالة طوال هذه الأعوام).

لقد ركز الرب يسوع خلال خدمته وهو في الجسد على أهمية توصيل رسالة الإنجيل للأطفال (والمحتاجين) بصورة دائمة، لأن قيمة الطفولة للمجتمع لا تحتاج إلى تأكيد، فهم المستقبل والأمل، ومعهم يستقر الغد.

لقد وضع الرب مسئولية حمل هذه الرسالة، لرعاية الآلاف من الأطفال والأرامل والكفيفات على «ماما ليليان» ومن كانوا معها، ومن جاءوا من بعدها، وحتى اليوم عبر مائة عام.

الشكر له ولكم، لأنه بفضل صلواتكم وعطاياكم نلمس كل جانب من حياة الأطفال بلمسة حنان ومحبة. نقربهم للرب يسوع المسيح ونصد عنهم ألد أعدائهم - الفقر والجهل والمرض - ليمنحهم الرب الحياة لمستقبل أفضل. ومثالنا في ذلك سحابة الشهود من الأمناء، الذين عاشوا بالإيمان في هذه الخدمة من الذين سبقونا، مثل «ماما ليليان» ومن خدموا معها، والذين جاءوا من بعدها ... ونحن - ناظرين إلى رئيس إيماننا ومكمله يسوع ليشجعنا لنكون بدورنا أمناء على الرسالة.





مدير المؤسسة

د.ق. جورجي أسعد

أبطال المسيحية: في الماضي و الحاضر

ليليان تراشر

أعظم العجائب المصرية

بقلم
چانيت وچيوف بنج



مكتبة المنار
Lighthouse Book Center
& Publishing House

المحتويات

وجهها، مكتوب عليها "جاهدت الجهاد الحسن، أكملت السعي، حفظت الإيمان، وأخيراً وضع لي إكليل البر" (٢تي٤:٧).

توفيق جورج
٣١ / ٥ / ٢٠٠٤

الفصل الأول

خطر في الظلام

أحصت ليليان تراشر لاهثة رؤوس الأطفال مرة أخرى وعندما وضعت يدها على رأس آخر طفل، قالت وهي متألمة: "كيف حدث هذا ؟. إن اثنين من الأطفال غير موجودين!".

خفق قلبها بشدة عندما أدركت أنهم قد تركوا طفلتين خلفهم. قالت وهي تنظر لوديعة إحدى الفتيات: "يجب أن أذهب لأنقذ الطفلتين المفقودتين. تأكدي أن يبقى الجميع في المكان، ولا تدعي أحداً يدخل. عند عودتي سوف أقرع الباب ثلاثة مرات". قال أحد الأطفال وهو يبكي: "عودي يا ماما، لا يمكنك أن تذهبي إلى هناك، ستموتين. أرجوك إبقي هنا. ماذا سنفعل بدونك؟".

قالت ليليان وهي تلملم ذيل ردائها في يدها: "الله يحميني. لا بد أن أذهب. يجب أن أنقذ أطفالي. صلوا من أجلي ومن أجل الطفلتين حتى تظلا هادئتين إلى أن أصل إليهما".

توقفت ليليان عندما وصلت لباب فرن الطوب القديم الذي تختبيء فيه مع الأطفال المائة والسبعة الذين في ملجأها.

طاخ!. طاخ !. طلقتان ناريتان أصابتا الحائط في الخارج فترددت في الخروج. انتظرت نصف دقيقة أخرى. سمعت

صوت مناداة من على بعد ثم طلقات نارية. قالت ليليان لنفسها: "إنها فرصتي الآن للخروج. ساعدني يا الله لأجد الطفلتين وأعود بهما بأمان". كانت تصلي وهي تسحب رتاج الباب وتخرج.

كانت ليلة مقمرة وقد كانت ليليان تستمتع عادة بمثل تلك الليلة. أما اليوم في أسيوط في مصر في سنة ١٩١٩، فكان كل ظل ينذر بالسوء وكل فرقعة تمثل تهديداً. أخذت ليليان طريقها تجاه مبنى النوم. وكانت تقول لنفسها باندهاش: "كيف تركت الطفلتين؟". فكل طفل في الملجأ له بنت أكبر ترعاه، وكانت ليليان تصر أن يؤدي الأطفال تدريبات الطوارىء مرة كل شهر. والآن عندما أصبح الخطر فعلياً حدث خطأ ما. فلا بد أن البنت الأكبر أصابها الذعر وهربت لحياتها دون أن تأخذ معها الطفلتين المسئولة عنهما. لا تستطيع ليليان أن تلومها، فممارسة تدريبات الطوارىء شيء ورؤية رجال غرباء وبنادق تعصف بأبواب البيت شيء آخر. فعندما رن جرس المدرسة منذراً بوجود طوارىء، كان أمام الأطفال والأرامل والعمال أقل من دقيقتين ليركضوا إلى فرن الطوب القديم أقرب مبنى آمن للملجأ.

قالت ليليان لنفسها وهي تتحسس موضع المفتاح في الباب:"ما حدث قد حدث". ثم نظرت عبر النيل إلى أسيوط، حيث اشتعل جزء من المدينة. وكانت ألسنة النيران الحمراء تلمع على سطح

النهر، فيبدو كأنه يشتعل أيضاً. عندما دار المفتاح في القفل تنفست ليليان الصعداء وأخذت تصلي صلاة قصيرة وهي تجري: "يا الله ساعدني لأجد الطفلتين المفقودتين قبل أن يعثر عليهما أحد". وعندما دخلت الملجأ ارتقت السلالم بسرعة وبدأت في ركل الباب بعد الآخر وبشكل مذعور تبحث في الحجرات عن علامات للحياة. أخيراً وجدت البنتين متكومتين في ركن أحد الأسرة. قالت ليليان وهي تحملهما واحدة على كل ذراع وتستعد لتركض بأقصى سرعة نحو الباب: "شش... يا صغيرتين. أريد أن تظلا هادئتين جداً". قالت هذا وهي تغلق الباب خلفها وتأخذ نفساً عميقاً. عليها الآن العودة لفرن الطوب، لكن هذه المرة وهي تحمل الطفلتين. عدلت ليليان من وضع البنتين على ذراعيها ثم بدأت في الجري.

في هذه المرة كانت هناك سحابة تحجب القمر فأصبح الليل أكثر ظلمة. بدأت ليليان تشعر بالراحة. قد يحمل الدخلاء أسلحة، لكن لديها ميزة ليست لديهم، وهي أنها تعرف كل بوصة في المكان سواء في النور أو في الظلام.

على بعد خمسين ياردة من المبنى، تجمد الدم في عروقها عندما سمعت أحدهم يصيح فيها: "توقفي! توقفي". واصلت ليليان الجري بينما ناداها الرجل: "يا إنجليزية .. تعالي إلى هنا". ثم

سمعت صرخة أخرى في الظلام ثم صوت أقدام تهرول. شعرت ليليان بتيار من الهواء الساخن يمر بجوار أذنها اليمنى. اهتزت يداها عندما أدركت أنها رصاصة. فقد كانوا يطلقون الرصاص عليها. وبصورة تلقائية ارتمت على الأرض، محاولة أن تحمي الطفلتين من الإصابة. وأثناء تدحرجها على جانب جدول مائي ضحل شعرت بألم حارق يصيب قدمها، إذ التوت تحتها. لكنها تغاضت عن الألم وركزت كل انتباهها نحو الطفلتين. وبرفق وضعت يديها على فم كل من الطفلتين لتظلا هادئتين. فأقل صوت سيكشف مكانهن ويعرضهن للرصاص. وفي صمت شكرت الله من أجل جدول المياه هذا، الذي كفل لهن الحماية من الرصاص وأعطاهن فرصة الإختباء.

كانت كل حواس ليليان في انتباه تام وهي ترقد في الجدول. وسمعت صوت أقدام شخصين بجوارها ثم توقفا على بعد عشر ياردات. قال أحدهما: "إنها هنا". فقال الآخر: "أتمنى أن أكون من يطلق النار عليها. فمصر لا تحتاج لتدخل إنجليزية".

قالت ليليان لنفسها والقشعريرة تسري في بدنها: "إنهم يظنون أنني إنجليزية". كانت مصر في ذلك الوقت في حالة ثورة ضد الاحتلال الإنجليزي. وكان المصريون يحاولون إخلاء مصر من كل ما هو إنجليزي. لكن ليليان ليست إنجليزية، بل أمريكية.

وليس هناك عداء بين المصريين والأمريكان. لكن الكراهية بدأت تشتعل داخل هؤلاء الرجال المصريين خلال عدة شهور ماضية ودفعتهم للرغبة في قتل أي شخص أجنبي.

أنّت الطفلة الصغيرة التي تحملها ليليان على ذراعها اليمنى. فتوقف الرجلان عن الكلام. وفي هذه الحظة حبست ليليان أنفاسها وبدأت تغوص في قاع جدول المياه. وقد خافت أن يسمع الرجلان صوت خفقات قلبها المرتفعة. وفي تلك اللحظة نادى صوت قوي على الرجلين: "تعاليا إلى هنا". تردد الرجلان للحظات ولكن حملا سلاحيهما مبتعدين. تنفست ليليان الصعداء عندما خفت صوت أقدامهما. ابتعد الرجلان عن الفرن واتجها نحو نهر النيل.

شعرت ليليان بارتياح شديد. وانتظرت دقيقة كاملة بعد أن اختفى الرجلان تماماً في الظلام، قبل أن تسحب يديها من على فمي الطفلتين. ثم تسلقت جدول المياه متجهة نحو فرن الطوب بأقصى سرعة. كان قدمها الملتوي يرسل فيضاً من الألم في كل الجانب الأيمن لجسدها. لكنها ظلت مندفعة للأمام. وفي دقائق أصبحت في أمان داخل الحائط السميك للفرن، يحيط بها الأطفال الذين فرحوا بعودتها إليهم سالمة مع الطفلتين.

وبينما تلتقط أنفاسها تساءلت؛ ماذا يقول أصدقاؤها في أمريكا إذا رأوها الآن. حقاً لقد قالت لهم إنها أتت لتخدم أهل مصر، لكنها لم تكن تتصور قط أنه سيأتي يوم تهرب فيه من طلقات الرصاص وتخاطر بحياتها بكامل إرادتها لتنقذ اثنتين من بناتها في الملجأ. فلم يوجد أي شيء في حياتها، سواء في طفولتها أو مراهقتها، يوحي بأن حياة مليئة بالمغامرات والأهوال تنتظرها.

* * * * * * * * * *

الفصل الثاني

البحث عن شيء ما

"هل يمكنني الجلوس هنا؟". تساءلت ليليان تراشر الفتاة ذات السبعة عشر عاماً، وهي تشير إلى الكرسي الذي بجوار النافذة في منتصف عربة القطار. أجابت السيدة متوسطة العمر التي تجلس في الكرسي الذي بجوار الممر: "بالطبع يا عزيزتي. هل تسافرين بمفردك؟". أومأت ليليان بالإيجاب. فهذه أول مغامراتها بعيداً عن أسرتها، وتنوي أن تستمتع بكل دقيقة فيها.

وضعت ليليان حقيبتها على رجليها، وفيها أقلامها وألوانها ورسوماتها. فهي تأمل أن تفتح لها تلك الرسومات باب العمل في صحيفة أتلانتا. أخذت ليليان نفساً عميقاً ومدت ساقيها الطويلتين. فهي تشعر بتشنج أصابع قدميها بسبب الحذاء الجديد الذي اشتراه والدها خصيصاً من أجل هذه الرحلة.

وبعد قليل أطلق القطار صفيره وصاح قائد القطار: "ليركب الجميع". سحبت ليليان النافذة لأسفل وأخذت تنظر من خلالها آملة أن تلمح أمها وأباها الواقفين بين جموع الناس. ولثانية من الزمان شعرت ليليان بالأسف الشديد لهما. فلها أخت واحدة، تدعى جيني، انتقلت مؤخراً لتعيش في الغرب في مدينة لونج

بيتش بولاية كاليفورنيا. وتعمل جيني ككاتبة اختزال، وقد ربحت ما يكفي من المال لتشتري لنفسها منزلاً صغيراً خاصاً يطل على المحيط. والآن بدأت ليليان رحلتها في الخروج أيضاً لتشق طريقها الخاص في الحياة. ولم يتبقَ سوى أبيها وأمها يعيشان في أشفيل بولاية نورث كارولينا.

لمحت ليليان أمها تلوح لها بمنديل، بينما القطار يتسلل ببطء مبتعداً عن المحطة. وأخيراً انطلقت ليليان في طريقها الخاص. وبينما كان القطار يطلق أبخرته، أخذت ليليان في التفكير في الأسابيع القادمة. فستستقل القطار أولاً إلى برنسويك في أقصى جنوب شرق ولاية جورجيا، لزيارة بعض الأصدقاء القدامى. فمنذ عام مضى كانت تعيش ليليان مع عائلتها في برنسويك. ثم انتقل رب العائلة إلى وظيفة أفضل في أشفيل. ومن برنسويك ستتجه ليليان إلى أتلانتا في شمال غرب جورجيا لتتقدم لوظيفة رسام في جريدة جورجيا. فكثير من الأمور الجيدة بدأت تحدث لها مرة واحدة مما جعلها لا تصدق ما يحدث. قالت لنفسها: "ثلاثة أشهر من الآن وسأكون فتاة مستقلة لها عمل تحصل منه على المال الكافي لشراء قبعات وجواهر. وسأدخر من هذا المال ما يكفي لأذهب بالقطار في رحلة إلى كاليفورنيا ". سألها صوت اعترض تدفق أفكارها: "إلى أين تتجهين؟". استدارت ليليان نحو

السيدة التي تجلس أمامها. كانت السيدة تحمل كتاباً مقدساً مفتوحاً بين يديها. ابتسمت ليليان لها وقالت: "إنني متجهة إلى برنسويك في زيارة لبعض الأصدقاء. ومن هناك سأذهب إلى أتلانتا حيث أرغب في الاستقرار هناك".

سألتها المرأة: "هل ستتزوجين هناك؟". أجابت ليليان في تعجب: "أوه! كلا. إنني أسعى للحصول على وظيفة في إحدى الصحف". قالت المرأة بدهشة شديدة: "حقاً نحن في عام ١٩٠٥، لكن فكرة أن تعيش البنت بمفردها خارج المنزل ويكون لها وظيفة تبدو فكرة صعبة. هل تعتقدين أنه يمكنك تدبير أمورك؟". أجابت ليليان:"أتوقع هذا. لقد رسمت رسومات بقدر ما استطعت. وأمي لها صديقة في أتلانتا يمكنني المكوث معها حتى أستقل بنفسي". توقفت ليليان لحظة ثم قالت: "بالمناسبة، اسمي ليليان تراشر". قالت المرأة: "آسفة لقد نسيت أن أعرفك بنفسي. أنا الآنسة ماتي بيري. أعتقد أنك لن تعرفي هذا من عدد الأطفال الذين يعيشون معي في المنزل". قالت ليليان:"سعدت بلقائك آنسة بيري. كم من الأطفال لديك؟". ضحكت ماتي وقالت: "آخر مرة أحصيتهم كانوا مئة، لكن الرب يحضر الكثيرين منهم طوال الوقت. فأنا أدير ملجأ الإيمان في ماريون بنورث كارولينا. هل سمعت به؟".أجابت:"لا لم أسمع به هل يمكن أن تخبريني عنه؟".

أغلقت ماتي الكتاب المقدس ووضعته في حقيبة يدها ورجعت بظهرها للخلف وقالت: "حسناً، إنها واحدة من هذه القصص التي تصعب حكايتها. فلا يوجد يومان متشابهان. إنني أدير الملجأ والرب يسدد كل احتياجاتنا". تساءلت ليليان: "ماذا تعنين بهذا؟". أجابت ماتي: "إنه أمر بسيط حقاً. ليس عندي الوقت الكافي للذهاب لجمع المال حيث أن الاعتناء باحتياجات هذا العدد الكبير من الأطفال يأخذ كل الوقت. فلذلك نحن نصلي والرب يتولى الأمر ويرسل لنا المال اللازم وكل ما نحتاج إليه. وحتى الآن لم يخذلني قط. ليس عندي نقود لشراء طعام العشاء للغد ، لكنني أثق أن الله سوف يرسلها لنا ". ثبتت ماتي عينيها الثاقبتين على ليليان وقالت:"إنها الحياة بالإيمان يا صغيرتي. فليس هناك نهاية لما تستطيعين القيام به إذا كنت تتبعين دعوة الله وتثقين في أنه يعتني بالباقي. هل تعرفتي على الرب؟". أجابت ليليان: "لقد قبلت يسوع في قلبي في أحد اجتماعات الصلاة في بيت جيراننا. في الحقيقة هؤلاء هم من سأذهب لأقيم عندهم في برنسويك. "أنَّا ماسون" محبوبة، فهي تتكلم مثلك عن الثقة في الرب وأمور أخرى مثل هذه". قالت ماتي: "إنني لا أؤمن أن هناك أموراً تحدث مصادفة في حياة أبناء الله. أليس كذلك؟". لم تنتظر ماتي الإجابة وأكملت حديثها قائلة: "أعتقد أنه ليس مصادفةً أن نجلس

معاً ونتكلم عن الملجأ. ففي الواقع أنا في أشد الاحتياج لمن يساعدني. لماذا لا تأتين وتعيشين معي وتساعدينني في تدبير أمر الأطفال؟. يمكنك دراسة الكتاب المقدس في وقت فراغك".

نظرت ليليان من النافذة. ماذا يمكنها أن تقول؟. لقد تعرفت على هذه السيدة من عشر دقائق فقط، والآن تدعوها لتغيير خطة حياتها والعمل في الملجأ. أرادت ليليان أن تضحك بصوت عالٍ، لكن أخلاقها وتنشئتها الجيدة منعتها من ذلك. فأجابت: "شكراً من أجل عرضك. سأفكر في الأمر". أجابت ماتي: "أحياناً لا يكون التفكير أمراً صائباً. اطلبي من الرب أن يوجه خطواتك. هذا كل ما عليك عمله". قالت ليليان وهي سعيدة أن القطار قد وصل إلى المحطة: "أظن أنك على حق".

أمسكت ماتي حقيبة يدها وقالت وهي تقف: "يجب أن أنزل الآن فأنا في طريقي لأخذ طفل ماتت والدته بالحمى في الربيع الماضي، ووالده لا يستطيع تحمل رعايته أكثر من هذا". ثم ربتت على يد ليليان وقالت: "تذكري عرضي يا عزيزتي. إنه ملجأ الإيمان في ماريون بنورث كارولينا. أمور غريبة تحدث. وسأصلي من أجلك". تمتمت ليليان قائلة: "سأتذكر ملجأ الإيمان في ماريون، في ولاية نورث كارولينا".

لـــم يجلس أحد على كرسي ماتي بعد أن نزلت وتركت ليليان

وحيدة مع أفكارها. "ليس هناك نهاية لما تستطيعين القيام به إذا اتبعتي دعوة الله ووثقتي أنه يعتني بالباقي". ظلت كلمات ماتي تتردد في ذهنَ ليليان وهي تراقب البقر والأشجار التي تراها عبر نافذة القطار. بسبب هذه الكلمات أحست ليليان بعدم الراحة.

قالت ليليان لنفسها: "إنني بالفعل أشعر أن شيئاً ما ينقصني لكنني خططت لحياتي. فقد أعطاني الله موهبة الرسم. وهو بالتأكيد ينتظر أن أستخدمها. فعندما أصل إلى أتلانتا سأذهب للكنيسة كل أحد. وعندما تستقر الأمور سأخدم في مدارس الأحد". رتبت ليليان الأمور في ذهنها، ثم سحبت لوحة بيضاء وقلماً من حقيبتها وبدأت في رسم القطار من الداخل.

بعد ساعات من سير القطار في ريف جورجيا توقف في محطة برنسويك. تعرفت ليليان على جارها القديم "إد ماسون" الذي كان ينتظرها على رصيف المحطة. وبجواره وقفت آنسة صغيرة. حدقت ليليان فيها ثم ضحكت بصوت عالٍ، فقد كانت هذه صديقتها القديمة جيردي. وقد كبرت خلال العام الذي افترقا فيه مما جعل ليليان تتعرف عليها بصعوبة. وفجأة أدركت ليليان أنها كبرت كذلك، وأصبح طولها ستة أقدام. والآن فقط سمحت لها أمها أن تترك شعرها الطويل البني مسدولاً على ظهرها بدلاً من تضفيره، وبذلك تبدو أطول. حملت ليليان حقيبتها وخرجت

من القطار. وزال توترها حين سمعت صوت جيردي. لقد أصبحتا الآن شابتين يافعتين، لكنهما تشتركان معاً في ثروة من ذكريات الطفولة حيث نشأتا معاً.

أخذت ليليان حقائبها من عربة الحقائب، ووضعتها على عربة تجرها الخيل. بدأت تفكر في كل الأسباب التي جعلتها تحب الحياة في برنسويك. فهناك جدول المياه حيث كانت تستحم كل يوم في الصيف، والتوت المتساقط وكانت تجمعه مع جيردي لحشو الفطائر، وديزي أنحف حصان في العالم وكان يحملهما بصبر عبر حقول القطن. لكن لم تحتفظ سوى بذكريات قليلة مبهمة عن بوسطن، حيث عاشت أسرتها في رغد وترف، حتى أصاب أحوالهم المادية ما جعلهم يتجهون جنوباً ليعيشوا في أحد البيوت الخشبية الصغيرة في برنسويك. وقبل إقامتهم في بوسطن عاشوا بعض الوقت في الجنوب. لكن ليليان لا تتذكر تلك الفترة وكل ما تعرفه أنها قد ولدت في جاكسونفيل بولاية فلوريدا.

عندما استدارت العربة، رأت ليليان الشجرة القديمة التي كانت هي وجيردي يصنعان فيها حصوناً سرية كثيرة. هتفت جيردي: "ها قد وصلنا". أسرعت أم جيردي السيدة أنَّا ماسون خارج المنزل الخشبي وحولها بعض إخوة جيردي الستة الصغار، وهي تحمل ابتسامتها العريضة وتجفف يديها في مريلة

المطبخ. ثم أخذت تساعد ليليان على النزول من العربة. قالت وهي تضمها بين ذراعيها: " في موعد العشاء تماماً يا حبيبتي". داخل البيت الريفي تفوح رائحة الطعام. إنه أمر رائع أن تعود ليليان مرة أخرى وسط عائلة ماسون.

مر أسبوع في بيت عائلة ماسون سريعاً. كانت ليليان تحب أن تكون جزءًا من عائلة كبيرة ونشيطة مرة أخرى. وأحبت بصفة خاصة الوقت الذي تقضيه مع أنَّا ماسون. عائلة ليليان كاثوليك ولم تكن تشعر بالحرية في الحديث عن الأمور الروحية مع أبويها. لكنها انجذبت لانفتاح أنَّا في الحديث عن إيمانها.

في اليوم السابق لرحيل ليليان، وجدت نفسها بمفردها مع أنَّا. فالصغار في المدرسة، وخرجت جيردي للمدينة مع أبيها لشراء بعض الحبوب. قالت ليليان لأنَّا في خجل: "هل يمكنني الحديث معك؟". أجابت أنَّا: "بالطبع يمكنك ذلك". ترددت ليليان للحظات ثم قالت: "لا أعرف كيف أصف مشكلتي. فأنا أشعر كأنني أبحث عن شيء ما بعيد المنال. ولا أعلم ما الذي أبحث عنه. إنه يبدو وكأنه شيء مفقود في حياتي".

فكرت أنَّا وأجابت: "ليس من السهل أن تبحثي عن شيء لا تعرفينه. أتمنى لو أستطيع أن أرشدك. لكن كل ما يمكنني قوله هو أن تداومي الصلاة. وسأصلي من أجلك. فإنني أشعر أن ما

تريدينه ليس بعيداً عنك". وافقت ليليان قائلة: "هذا ما أحس به. لكنني أشعر أحياناً أنني لن أحصل عليه أبداً". أجابت أنَّا: "سوف تحصلين عليه يا حبيبتي. فقط كوني قريبة من الله ، وهو يظهر لك هذا الشيء".

في وقت متأخر من هذا اليوم أخذت ليليان تتمشى طويلاً بين الأشجار. شعرت براحة أكثر بعد حديثها مع أنَّا، برغم أنها لم تقترب بعد من معرفة ما تفتقده في حياتها. لكنها عرفت أنها بين يدي الله . أخذتها رائحة شجر الصنوبر والسناجب المسرعة إلى تذكر مئات المرات من التجوال ما بين منزل عائلتها ومنزل عائلة ماسون. وبعد نحو عشرين دقيقة من السير وصلت إلى شجرة ساقطة تسد الطريق. وقفت ليليان محدقة في الشجرة. هل مرت بالفعل ستة أعوام منذ اليوم الذي ركعت فيه عند هذه الشجرة لتصلي؟. ففي هذا الوقت كانت قد حضرت اجتماعات صلاة كثيرة في بيت عائلة ماسون، وبرغم أنه لم يكن لديها الجرأة لتصلي أو تتكلم بصوت مرتفع، كان هناك شيء في هذه الاجتماعات يجتذبها. فبدأت في قراءة الكتاب المقدس. وعند هذه الشجرة الساقطة كانت أول مرة تركع على ركبتيها لتصلي. ابتسمت ليليان وهي تتذكر كل كلمة في صلاتها. ثم فجأة شعرت برغبة ملحة في أن تركع وتصلي هنا مرة أخرى. سجدت على

الطريق المليء بالطحالب، وكررت مرة أخرى صلاتها الأولى: "يارب، أريد أن أكون ابنتك. وإذا كان من الممكن أن أفعل أي شيء من أجلك، أرجوك قل لي ما هو ، وسوف أفعله".

بدأت الدموع تتساقط على خديها وهي تنطق بهذه الكلمات ثم أضافت: "إنني لا زلت أعني هذا".

* * * * * * * * * *

الفصل الثالث

شيء أفضل

وقفت ليليان على محطة الحافلة في كونفدريت أفينيو بولاية أتلانتا. وأخذت تشاهد العربات والخيول وهي تعبر. كان المساء عاصفاً، لذلك أمسكت حقيبة الرسومات بقوة بيد ترتدي فيها قفازاً، بينما ثبتت باليد الأخرى قبعتها فوق رأسها. وحينما دق الجرس، توقفت الحافلة الكهربية في المحطة أمام ليليان. وهذه أول مرة تستقله. وشعرت وهي تركب أنها تحب الكهرباء ولا تحب دخان القطار الذي ركبته اليوم السابق من برنسويك، فالحافلة الكهربائية هادئة ونظيفة.

خلال دقائق كانت ليليان تندفع وسط المدينة في ولاية أتلانتا حيث كانت قد رسمت لها مضيفتها خريطة تمكنها من السير في عدة شوارع بعد محطة الحافلة إلى مكتب الجريدة. وجدت ليليان المكان بسهولة. وأخذت نفساً عميقاً قبل أن تفتح الباب البلوطي المزدوج متجهة إلى العالم الذي تأمل أن توجد فيه.

لم يسبق لها أن دخلت مكتب جريدة من قبل. واندهشت عندما وجدت أن المكتب أكثر جلبة وضوضاءاً من الشارع. فالجميع يجلسون معاً في حجرة واحدة كبيرة مقسمة بفواصل تصل بالكاد

إلى أربعة أقدام. وكان من السهل على ليليان أن تنظر من فوق الفواصل وتعرف كل ما يحدث في هذا المكان. كانت هناك ست شابات يجلسن أمام الآلات الكاتبة ويكتبن بقوة. ذكرها صوت ضغط مفاتيح الآلات الكاتبة بنقر الدجاج في مزرعة عائلة ماسون. وكان هناك شابان يسيران بشكل سريع حول الحجرة، يضعان أوراقاً في حاملات الأوراق على المكاتب المختلفة ويأخذان أوراقاً من حاملات أوراق أخرى. وفي آخر الحجرة، يجلس رجلان وقد أحاطت بهما سحابة كثيفة من دخان التبغ، وقد انهمكا في إحدى المناقشات الساخنة.

برغم أن هذا ليس نوعية الأماكن التي اعتادت ليليان الوجود بها، إلا أن الجو العام أعجبها منذ لحظة دخولها الحجرة. كان كل فرد منتبهاً فقط لعمله الخاص. ما كان يجري بهذه الحجرة جعل ليليان تشعر بالحياة.

بعد أن استوعبت المنظر، توجهت لمكتب الاستقبال وطلبت مقابلة السيد هوارد المحرر الفني. كان أحد الرجلين المنهمكين في تلك المناقشة الساخنة. عندما رآها الرجل أشار إليها أن تدخل حجرة صغيرة لها نوافذ زجاجية عريضة تشرف على الحجرة الكبيرة. وعندما أغلق الباب، انخفض صوت الحجرة الخارجية. سألها السيد هوارد بلهجة أهل الجنوب: "إذاً أنت

الآنسة ليليان تراشر؟. كنت أتوق إلى مقابلتك. أظن أنني سأرى بعض رسوماتك". أمسكت حقيبة الرسومات بتوتر، وأخرجت منها اثنتي عشرة لوحة من اللوحات الثمينة التي نالت عنها جوائز. ثم أجابت وهي تقدم له الرسومات: "نعم".

انحنى السيد هوارد للأمام وأخذ منها اللوحات وبدأ يتصفحها. وليليان تشاهده وحاجباها مرفوعان. أخيراً قال: "رائع جداً. كنت أود أن آخذ وقتاً أطول في تصفح هذه الرسومات الآن، لكن ليس أمامي سوى خمس ساعات لإنهاء بعض الأعمال. وأيضاً أعاني اليوم من صداع شديد. لذلك اتركي لي الرسومات وعودي غداً في العاشرة صباحاً. وسيمكنني أن أبلغك هل ستحصلين على الوظيفة أم لا. لكن بناءً على ما رأيته سريعاً من أعمالك، يمكن أن أقول لك إن لديك فرصة كبيرة للحصول على الوظيفة". ثم وقف وفتح الباب. جمعت ليليان أشياءها وخرجت. كانت المقابلة أقصر بكثير مما توقعت ليليان، وأيضاً أكثر نجاحاً. كانت ليليان واثقة أن السيد هوارد أعجبه عملها. كما كانت متأكدة أنها ستحب العمل في مكتب الجريدة الصاخب هذا.

في اليوم التالي استيقظت ليليان مبكراً ووجها مشرق، فقررت أن تذهب لتشتري بعض الأشياء الصغيرة من المتاجر قبل أن تتوجه إلى مكتب الجريدة. فهناك عدة متاجر للملابس في أتلانتا

مشهورة بأحدث أزياء الموضة الباريسية والتي تشتاق لرؤيتها.

عندما حانت الساعة العاشرة تماماً، كانت ليليان تقف أمام مكتب جريدة جورجيا. وعندما دخلت الحجرة المزدحمة. لم تجد السيد هوارد في أي مكان. كان هناك رجل آخر يجلس في الحجرة الصغيرة ذات النافذة الزجاجية.

سألت ليليان: "هل السيد هوارد موجود ؟". أجابت موظفة الاستقبال بدون أن ترفع نظرها عن الأوراق التي تنظمها: "إنني آسفة فهو ليس موجوداً. لقد أصيب بالأنفلونزا. لكن السيد وايتنج يتولى مسئوليات عمله. هل تريدين التحدث إليه؟". أجابت ليليان: "أعتقد أن هذا أفضل. هل هو هذا الشخص الموجود بالحجرة؟". أجابت موظفة الاستقبال: "نعم هو". أخذت ليليان طريقها حتى وصلت لنهاية الحجرة. طرقت باب الحجرة الصغيرة، فدعاها السيد وايتنج للدخول.

قالت ليليان وهي تدخل في الموضوع مباشرة: " لقد جئت بخصوص وظيفة الرسام، وتركت بعض الرسومات مع السيد هوارد بالأمس. وطلب مني أن آتي اليوم ليخبرني إذا كنت سأحصل على الوظيفة أم لا". قال السيد وايتنج وهو يشير بيديه: "أنت خامس شخص يتقدم لهذه الوظيفة. لا أعرف ماذا أقول لك سوى أن السيد هوارد اختار شخصاً آخر وقال إنه متميز وأنه

الأفضل لهذه الوظيفة. أعتقد أنه لم يحالفك الحظ اليوم".

وقفت ليليان صامتة تحاول أن تستوعب الكلمات التي سمعتها تحدد مستقبلها. ثم سألت: "أريد استرداد رسوماتي من فضلك؟". أخذ السيد وايتنج يفتش فوق المكتب ، ويرفع الأوراق ويحرك صفحات الجرائد. ثم قال وهو يرفع يديه في يأس مرة أخرى: "لا أجدها هنا. أراد شخص آخر هذا الصباح أن يأخذ رسوماته، ولم أجدها أيضاً. تعالي مرة أخرى بعد يومين أو ثلاثة أيام وسوف يكون السيد هوارد قد عاد. وهو سيجدها بالتأكيد".

تطلعت ليليان في الحجرة. كان عليها أن تتوقع أن العثور على رسوماتها بين أكوام الأوراق التي تملأ المكتب يعد بالفعل أمراً صعباً. تمتمت ليليان وهي تخرج: "شكراً لك". ثم قالت لنفسها وهي تمشي متجهة نحو الشارع: "شكراً على ماذا؟. شكراً على ضياع آمالي؟، على قضاء ثانيتين في مشاهدة عملي ثم ضياعه؟، على وضعه في مكان حيث لا يمكن العثور عليه ؟".

تعكر مزاج ليليان تماماً عند عودتها للبيت في كونفدريت أفينو، حيث تقيم. تساءلت: "ماذا أفعل الآن؟". لحسن الحظ كانت مضيفتها خارج المنزل تجري بعض المكالمات. أسرعت ليليان لحجرتها وأغلقت الباب بإحكام خلفها وألقت نفسها على فراشها. أخذت تبكي في حرقة حتى بدأت عينيها في التورم، وبللت ثلاثة

مناديل بدموعها. ثم من التعب نامت أخيراً.

عندما استيقظت بعد الظهيرة كانت الشمس ترمي بأشعتها من خلال النافذة. وشعرت بشيء مختلف تماماً داخلها. تذكرت أنهم رفضوها من الوظيفة في الجريدة، لكنها لم تشعر بالألم لذلك. لكن في الحقيقة شعرت بالفرح والسلام والثقة في شيء واحد وهو أن الله يعلم أنها لن تُقبل في الوظيفة، وأنه يرتب لها شيئاً أفضل لتفعله. قامت ليليان وأخذت تبحث عن حقيبتها. ففي داخلها عنوان الآنسة ماتي بيري. وبدون أدنى شك أو تردد علمت ليليان أن الله يقودها للعمل في الملجأ الموجود بولاية نورث كارولينا. حدث هذا قبل ثلاثة أيام من تفكيرها في الذهاب لمكتب جريدة جورجيا لتسترد رسوماتها. وعندما دخلت حجرة الأخبار المليئة بالضوضاء، رفعت رأسها بثقة لأنها تعلم أنه من المفترض عليها أن تذهب للملجأ.

كان السيد هوارد يجلس خلف مكتبه يكتب بعصبية على مسند الكتابة. وعندما نظر لأعلى ورأى ليليان، أشار إليها بالدخول. كان يبدو أنه غير مسرور برؤيتها. قال لها باحتداد: "لماذا لم تعودي يا آنسة؟. لقد احتفظت بالوظيفة متاحة لك لفترة، لكنني اضطررت لتعيين شخص آخر بالأمس". غاصت ليليان داخل الكرسي الذي تجلس عليه وقالت: "لكنني عدت مرة أخرى عندما

كنت مريضاً. وتحدثت إلى السيد وايتنج، وهو بدوره قال لي إنك وجدت شخصاً أفضل للوظيفة".

قال السيد هوارد متألماً: "إنها لك أنتِ. لقد ظننت أنني أوضحت لوايتنج أنه إذا عدتِ فالوظيفة لك". هز رأسه وواصل حديثه: "لا أتصور كيف اختلط عليه الأمر. أنظري. لقد وضعت رسوماتك في الدرج الأعلى وأرفقت بها كلمة ترحيب". فتح الدرج واثقاً أن بداخله رسومات ليليان والخطاب. ثم أكمل حديثه وهو يعطيها الرسومات قائلاً: "أنا آسف. آسف لنفسي ولك".

شعرت ليليان أنها تشاهد المشهد من الخارج. فمن المؤلم أن تفكر كيف أنها كانت قريبة جداً من حصولها على الوظيفة التي كانت تحلم بها. ولكنها الآن تشكر الله جداً أنها لم تحصل عليها. قالت وهي تقف لتنصرف: "لا تكن آسفاً لي. فإنه ينتظرني حياة رائعة. شكراً على كل شيء". ثم استدارت وابتسمت للسيد هوارد الذي كان ينظر إليها بذهول.

بعد ثمانية أيام كانت ليليان في ماريون بولاية نورث كارولينا تقرع على باب ملجأ الإيمان. فلم تعد لبيتها قبل ذهابها إلى هناك، لأنها تعلم أن والديها لن يوافقاها على خطتها الجديدة. وربما يفعلان كل ما يستطيعان ليبعداها عن هذا الأمر. لكنها تعلم في أعماقها أنها خرجت تبحث عن مصيرها. زال عنها

الشعور القديم الذي وصفته لأنّا ماسون عن الشيء الذي لم تصل إليه بعد وتشعر الآن بثقة في أن الله سيكشف لها عن مستقبلها.

بعد أسبوع كان على ليليان أن تتذكر هذا الاقتناع. فالاعتناء بمئة طفل عمل شاق أكثر مما تتصور. فقد أصبحت حياتها دوامة من الترتيب والطبخ وحمل الأطفال الباكين. كانت تذهب للسرير كل ليلة وعظامها تؤلمها. وتستيقظ مع بداية الفجر لتعد الإفطار. الحياة بالإيمان كما تدعوها ماتي بيرى ليست سهلة. فحتى ذلك الوقت تكفل أبواها بكل احتياجاتها، لكنها الآن ليس لديها أية وسيلة للإعالة. عندما تمزق حذاؤها لم يكن لديها نقود لتشتري غيره. صلت وطلبت من الله أن يسدد احتياجها. وفي اليوم التالي تبرع أحد الأشخاص بصندوق من الملابس القديمة يحتوي على زوج من الأحذية الرجالي المستخدمة. أخذت ليليان الحذاء ووضعته في قدميها. كان الحذاء ناشفاً، لكنه مناسب لمقاسها. فسألت ماتي إن كان يمكنها أن تأخذه. تعجبت ماتي وقالت: "لكنه حذاء رجالي يا عزيزتي، يمكنك بالطبع أن تأخذيه لكن هل تريدينه حقاً؟. لا أستطيع أن أراك ترتدين حذاءاً مثل هذا." قالت ليليان: "حسناً، لقد صليت من أجل حذاء وهذا الحذاء كان الاستجابة. سآخذه لأنه تسديد الله لاحتياجي". أجابت ماتي: "إن كان الأمر كذلك فليكن".

كانت ليليان سعيدة بحذائها الجديد، برغم أنه حتى الأطفال الصغار لاحظوا أنه لا يتناسب مع باقي ملابسها. وفي إحدى المرات وجدت ليليان أحد الرسومات التي رسمها أحد الأولاد بالملجأ تظهرها في ملابس لطيفة لكن بحذاء رجالي كبير بارز من الأمام. ضحكت ليليان عندما رأت الرسم فهي تعلم أنها تبدو مضحكة، لكنها لم تنزعج. فهي متأكدة أنها في المكان الذي يريد الله لها أن تكون فيه. لذلك لا يعنيها الآن كيف تبدو.

خلال فصل الشتاء أصبحت ليليان ملتصقة بكثير من الأطفال. فكانت دائماً تتعرف أكثر على شخصية كل طفل والطريقة الفريدة التي خلقه بها الله.

وفي بعض الأحيان يعطيها أحدهم في الكنيسة بعض السنتات أو دولاراً لتشتري به ما تحتاج، لكنها في أغلب الأحيان تقدم هذه النقود لماتي لتساعدها في دفع الفواتير. فهناك دائماً ما يكفيها من النقود لشراء الضروريات لكن ليس أكثر.

في الربيع جاء جاسون أخو ماتي وزوجته إيما لزيارة الملجأ. كانا في رحلة كرازة وتوقفا عند ماتي ليساعداها بعض الوقت. أحبتهما ليليان بسرعة. وكانا يأخذانها كثيراً في جولات قصيرة للوعظ والخدمة. وبعد وقت قصير وجدت أنها تحب أن تشارك في المناداة بالإنجيل . لذلك عندما شجعتها ماتي على الالتحاق

بكلية لدراسة الكتاب المقدس، قبلت الفكرة ونفذتها.

خلال السنوات الخمس التالية، أصبحت حياة ليليان ممتلئة. فكانت تقضي جزءًا من وقتها في الاعتناء بالأطفال والجزء الآخر مع عائلة بيري في الوعظ والكرازة بالإنجيل في الجنوب. وفي إحدى الجولات زاروا قرية قريبة وأقاموا لدى عائلة جودسون. كان جاسون وإيما يعرفان هذه العائلة جيداً. وشعرت ليليان وكأنها في منزلها في هذا البيت أيضاً، خاصة مع توم الابن الأكبر في العائلة. كان توم طويل القامة ممتلىء البنية. وكان خادماً مكرساً. انجذبت ليليان له. وكانا كلما أمضيا معاً وقتاً أطول، زاد الإعجاب المتبادل بينهما.

بعد وقت قصير من الزمن، أقامت المدرسة المحلية مزاداً خيرياً، حتى يتمكنوا من جمع المال للخدمة. أعدت ليليان صندوقاً من الطعام للمزاد، ودفع توم أعلى سعر لهذا الصندوق. وعندما ذهب لاستلام الصندوق، نظر لليليان وقال لها: "أتمنى أن يأتي اليوم الذي تعدين فيه العشاء لي كل ليلة".

سرت قشعريرة في جسد ليليان. كم هي سعيدة أنها فقدت الوظيفة في أتلانتا وجاءت لتعمل في الملجأ. فمقابلة شاب مؤمن وتقي ووسيم مثل توم أكثر مما تحلم به. وهي متأكدة أنه لا بد أن هذا جزء من خطة الله لحياتها.

في نهاية فصل الربيع كان توم وليليان يقضيان كل وقت فراغهما معاً. وفي مايو طلب توم الزواج من ليليان. وبرغم أن ليليان متأكدة أن هذه هي الخطوة الطبيعية التالية، إلا إنها ظلت تصلي هي وتوم معاً لأجل هذا الأمر حتى أصبحا متأكدين أن هذا هو الشيء الصحيح الذي يجب أن يفعلاه. تم تحديد ميعاد الزفاف بعد شهرين أي في صيف عام ١٩١٠.

لم تكن ليليان تملك الكثير من المال، لكنها لحسن الحظ لديها خبرة كبيرة في الخياطة. فمنذ أن وصلت للملجأ وهي تمارس هذا العمل. أحضرت أم توم لليليان قماشاً من الحرير الأبيض، وبدأت ليليان في حياكة فستان زفافها بنفسها.

تم كل شيء في الميعاد المحدد له تماماً. وقبل الزفاف بعشرة أيام كان لديها وقت لمصاحبة ماتي للاستماع إلى حديث أحد الكارزين من الهند. وبينما كان يتحدث، وجدت ليليان الدموع تسيل على وجهها. فمسحتها لكنها استمرت في التدفق. لم يكن لديها أدنى فكرة عن سبب هذا. سألت نفسها: "كل شيء في حياتي يسير بطريقة رائعة. فلماذا أبكي الآن؟ ".

عندما انتهت الخدمة، كان على ليليان أن تبذل مجهوداً كبيراً في تحية الموجودين، ولسبب ما لم تستطع أن تتطلع في عيني الكارز. وعندما عادت للملجأ طلبت الإذن لتذهب لحجرتها.

ومرة أخرى ألقت بنفسها على فراشها، وأخذ جسدها يرتجف من شدة البكاء. تساءلت ليليان: "إذا كان كل شيء على ما يرام، فلماذا أشعر الآن أن هناك خطأ ما ؟ ".

لم تنم ليليان في تلك الليلة. وبينما أخذت تفكر في السؤال، أدركت أنها تعرف الإجابة. فالإجابة كامنة في أعماق قلبها. أحست أن الله يدعوها لخدمة الكرازة وشعرت أن الدعوة هي أن تذهب إلى أفريقيا. وشعرت بقشعريرة في جسدها عندما أقرت بهذا الأمر. لكن عندما أدركت هذا كان عليها مواجهة حقيقة أخرى أيضاً، هي أن توم ليس لديه دعوة للكرازة. في الصباح الباكر، قرعت ماتي باب حجرة ليليان. أدخلت ماتي رأسها من الباب وقالت: "ليليان، إذا كنت تريدين أن نتحدث معاً عن أي شيء، فأنا مستعدة. أم تفضلين أن أتركك للغد ؟". وقفت ليليان وفركت عينيها ثم قالت: "لا، أدخلي واجلسي". سألتها ماتي:كنت حزينة جداً بالأمس. هل تحبين أن تتكلمي عن المشكلة التي تسبب لك كل هذا الحزن؟. أخذت ليليان نفساً عميقاً، فهي تعلم أنها على وشك أن تعلن ما سيغير مجرى حياتها تماماً .

* * * * * * * * * *

الفصل الرابع

حياة كرازة حقيقية

قالت ليليان وهي تواجه نظرات ماتي: "لا يوجد خطأ، ما عدا أنني أعلم ما هي الخطوة التالية. إنني مخطوبة لأروع رجل في العالم، لكني لا أستطيع أن أتزوجه". رجعت ماتي للخلف وقالت: "ماذا تعنين بأنك لن تستطيعي أن تتزوجيه؟. كل شيء قد تم إعداده، لا ينقصك شيء، أليس كذلك؟" أجابت ليليان: "لا، ليس الأمر كذلك. فكل الناس طيبون معنا. ولدينا الآن كل ما نحتاجه". سألت ماتي وصوتها قد امتلأ بالحيرة: "ما المشكلة إذاً؟. كل منكما مناسب للآخر. إنه أمر رائع أن تصبحا معاً".

قالت ليليان ودموعها تفيض مرة أخرى: "لكن كل ما في الأمر، أنه لا يمكن أن نصبح معاً. فأنا سأذهب لأفريقيا، وتوم يشعر أنه مدعو لأن يكون هنا". قالت ماتي وهي تضحك: "أنت... ماذا؟". قالت ليليان وهي تنتحب: "الأمر تماماً كما قلت لك، إن الله يدعوني أن أصبح مرسلة، ولا أستطيع أن أرفض دعوته، حتى ولو ... حتى ولو من أجل توم".

تنهدت ماتي وهي تقول : " المسكين تـوم . كيف سيمكنه أن

يتحمل هذه الصدمة ؟. فلم أرَ في حياتي شاباً يحب مثلما يحبك هو". قالت ليليان بهــدوء : "أعرف هذا" ثم أخذ جسدها يهتز من البكاء المفرط. أمسكت ماتي بيد ليليان فبدأت تهدأ.

قالت ليليان: "ينبغي أن أخبر توم بهذا الآن. فليس من العدل أن يعتقد أننا سنتزوج بعد عشرة أيام". وافقتها ماتي، وبعد ساعتين وجدت ليليان نفسها تواجه أصعب مهمة في حياتها. أصيب توم بذهول عندما استمع لما قالته ليليان. وفي الحقيقة، لم يمكنه استيعابه. قال لها إذا كانت تريد أن تخدم في الكرازة لمدة سنة أو سنتين فيمكنه أن ينتظرها. لكنها هزت رأسها فهي تعلم يقيناً في أعماقها أن الله دعاها للخدمة في بلد أجنبي، وأنها لن تعيش في الولايات المتحدة مرة أخرى.

أمكنها أخيراً أن توضح هذا لتوم ثم عادت للملجأ. وبرغم حبها الشديد للعمل في هذا المكان، إلا إنها علمت أن وقتها في الملجأ قد انتهى أيضاً. فعليها أن تنال بعض التدريب على خدمة الكرازة، لكن كيف؟. فليس معها سوى خمسة دولارات فقط حيث أنها استخدمت باقي مالها في مساعدة الملجأ وفي دفع مصاريف متطلبات الزواج .

بعد أسبوع سمعت ليليان عن مؤتمر عن قداسة الكرازة يقام في بيتسبرج بولاية بنسلفانيا. وشعرت أن حضور هذا المؤتمر

هو بالتأكيد الخطوة الأولى نحو خدمة الكرازة. لكن بيتسبرج تبعــد أكثر من ستمائة ميل. وفيما هي تصلي من أجل حضور المؤتمر، أعطاها بعض أصدقائها مالاً لتذهب في رحلتها.

وفي خلال أيام أصبح معها ثمانية عشر دولاراً، وهو المبلغ الذي تحتاجه لشراء تذكرة القطار. فوضعت النقود في مكتب ماتي ليكون في مكان آمن. وقبل أن تخبرها أنها وضعت النقود هناك، وجدت ميرتل أخت ماتي النقود فاعتقدت أنها نقود الملجأ، فاستخدمتها لتدفع فاتورة الطعام. وعند اكتشاف الخطأ لم يكن في الملجأ نقود كافية لإعادتها لليليان. صدمت ليليان لما حدث. فهي واثقة أن الله دبر لها المال لتذهب للمؤتمر والآن صُرفت النقود. فتساءلت عما إذا كانت قد سمعت صوت الله بالفعل. لكن كلما فكرت في الأمر وصلت من أجله، ازدادت اقتناعاً أن الله يريدها أن تذهب للمؤتمر.

أعطاها أصدقاؤها ما توفر لديهم من مال. لكن المبلغ كان عشرة دولارات فقط وهذا يكفي لتذهب بالقطار إلى واشنطن العاصمة. والآن أصبحت ليليان مقتنعة أنها يجب أن تذهب لأبعد ما يمكن وتثق في أن الله يسدد بقية المبلغ. لذلك اشترت تذكرة قطار لواشنطن. لم تذهب ليليان هناك من قبل، كما أنها لا تعرف أحداً في هذه المدينة. لكن ماتي أعطتها اسم إحدى

صديقاتها في واشنطن وأرسلت معها خطاباً لها. ووعدتها أيضاً أنـــه بمجرد توفر ثمانية عشر دولاراً في الملجأ، سترسلها لهـــا حتى تستطيع استكمال رحلتها.

جلست ليليان في القطار المتجه للشمال، وحاولت ألا تفكر كثيراً فيما تقوم به. كان معها حقيبة واحدة صغيرة ودولار واحد في محفظتها، وبداخلها رغبة مشتعلة للالتحاق بخدمة الكرازة. والكنيسة التي تصلي فيها ليليان وهي كنيسة القداسة في شارع بوكستون في أشفيل بولاية نورث كارولينا لا تقدر أن تدعم ليليان مادياً. وكان والداها ضد فكرة عملها الجديد.

حين توقف القطار في محطة واشنطن دي سي، حملت ليليان حقيبتها واتجهت إلى مسكن الآنسة أوليفير صديقة ماتي. دقت ليليان جرس الباب بتوتر، ثم عدلت شعرها. فتحت الباب شابة في منتصف العمر. قدمت ليليان نفسها إليها وأعطتها خطاب ماتي. قالت الآنسة أوليفير وهي تهز رأسها في أسى: " يا له من أمر محرج أن تأتي الآن. كنت أحب أن أستضيفك، لكن عندي الآن أسرة أحد الكارزين وشابة كارزة من مصر يقيمون معي". لكنها ابتسمت وأمسكت حقيبة ليليان وهي تقول: "لكن من المؤكد أنك جائعة. أدخلي وتناولي معنا الغداء ثم نناقش معاً إلى أين يمكنك أن تذهبي بعد ذلك".

شكرت ليليان الله في قلبها بينما تقودها الآنسة أوليفير لحجرة المعيشة. فقد شعرت أنه ربما تكون هذه هي خطة الله لها لغرض ما. فلو ذهبت مباشرة لبتسبرج، لما أتيحت لها هذه الفرصة الرائعة لتتقابل مع كارزين حقيقيين من مصر التي تقع في شمال أفريقيا. بالتأكيد ستجد أجوبة لأسئلة كثيرة داخلها.

وقف رجل طويل القامة عندما دخلت ليليان الحجرة. قالت الآنسة أوليفير: "أقدم لكِ القس برلسفورد وزوجته. وأقدم لكما الآنسة ليليان تراشر وهي تريد أن تكرز في أفريقيا". رد السيد برلسفورد قائلاً: "أفريقيا؟. اجلسي يا آنسة ليليان، وأخبريني بكل شيء. أي جزء من أفريقيا أنت مدعوة له؟".

أجابت ليليان وهي تود أن تسأل لا أن تجيب، فهي تريد معرفة أمور كثيرة : "لا أعلم حتى الآن". أكمل القس حديثه: "بالتأكيد اللجنة المسئولة عنك لديها مكان معين ترسلك إليه". قالت ليليان وهي تتناول فنجان الشاي من الآنسة أوليفير: "لم ترسلني لجنة. في الحقيقة، أنا لست عضواً رسمياً في كنيسة. فأنا أتردد على كنيسة القداسة في أشفيل، وبالتأكيد سيصلون من أجلي. وهذا كل ما في الأمر". قال السيد برلسفورد: "حسناً، ماذا عن عائلتك؟. لابد أنها ستدعمك مادياً في هذه الرحلة". بدأت ليليان تشعر بالارتباك وقالت : " لا يا سيدي، ففي الحقيقة، هـــم

يتمنون ألا أذهب بالمرة".

تكلمت السيـــدة برلسفورد للمرة الأولى قائلة: "هل تعنين أنك ذاهبة إلى أفريقيا بدون أي تدعيم، وبدون أي فكرة عن المكان الذي أنت ذاهبة إليه، وليس معك سوى مصاريف الانتقال؟". وهنا تمنت ليليان أن تكون في أي مكان آخر وليس في هذا المكان. فذكر أحلامها بصوت عالٍ يعطي انطباعاً بالحماقة. لكنها قررت أن تكون أمينة. فقالت وهي تنظر في عيني القس: "جناب الراعي برلسفورد، أنا لا أمتلك سوى دولار واحد".

ساد الحجرة فجأة صمت شديد. واتسعت عينا مدام برلسفورد، بينما توقف فنجان الشاي في منتصف طريقه نحو فمها. هز السيد برلسفورد رأسه وأخيراً تكلم قائلاً: "لا! لا! لا!. أنت في طريقك لمهمة مجنونة. لا يوجد مكان لفتاة مثلك في أفريقيا. أنت لا تعرفين اللغة. وليس لديك أي دعم مادي أو طريقة للحصول عليه. لا!. هذا الأمر يجب ألا يسمح به. من الأفضل لك أن تذهبي مباشرة لبيتك ولوالديك وتعتذري لهم عن كل ما سببته من قلق لأجل أمر ليس له معنى".

توقف الحديث عند هذا الحد، عندما دخلت كارزة أخرى الحجرة وهي ماتي راست، فشعر كل الحاضرين بالراحة لوجود شخص آخر وأمر آخر للتركيز عليه. عندما سمعت ماتي أن

ليليان ليس لديها مكان لتقيم فيه، عرضت أن تترك لها الحجرة التي تقيم فيها وتذهب لتقيم مع صديقة لها في واشنطن. شعرت ليليان بالامتنان الشديد لأنها وجدت مكاناً تقيم فيه، وحاولت أن تتجنب الحديث مرة أخرى عن دعوتها للكرازة.

في اليوم التالي كانت ليليان تتمشى في الردهة حينما قابلت القس برلسفورد ودعاها لتدخل حجرة المعيشة. قال بعد أن تنحنح: "آنسة تراشر، عندي شيء أود أن أقوله لك. من فضلك اجلسي". اضطرت ليليان للجلوس والانتظار لسماع المحاضرة الثانية عن العودة للمنزل. قال القس برلسفورد: "عندما ناقشت الأمر مع زوجتي، وبعد أن صلينا معاً، كان لابد أن أعترف أنني تسرعت بخصوص ما قلته لك بالأمس. هل يمكنك أن تغفري لي لأنني شككت في دعوتك؟". لم تجبه ليليان فقد كانت تحاول جاهدة أن تفهم ما سمعته. ثم أكمل حديثه قائلاً: "إن ما حدث كان بسبب الصدمة التي شعرت بها عندما وجدت فتاة صغيرة مثلك تجرؤ أن تغامر بالذهاب للجانب الآخر من العالم بدون عائلتها وبدون نقود وبدون أية ترتيبات أخرى. فقد اعتدنا أن نفعل الأمور بطريقة منظمة ولذلك يبدو الأمر بالنسبة لنا مستحيلاً ولا تقبله عقولنا. لكن على أي حال، الله يصنع العمل بطرق مختلفة، ونحن نـــرى أن لديك الإيمان، وهـــذا هو مفتاح

الأمر كله. أرجو أن تغفري لي".

ابتسمت ليليان وقالت: "ليس هناك خطأ لأغفره لك. إنني أفهم كم يبدو الأمر غريباً. فأحياناً أسأل نفسي ماذا أنا فاعلة. فأنا لا أستطيع أن أرى المستقبل، لكنني أعلم أن الله يدعوني للكرازة، وهو الذي سيفتح الطريق أمامي". قال القس: "هذا بالتحديد ما أردت أن أقوله لك. أنت تعلمين أنني وزوجتي ندير بيتاً للكرازة في أسيوط بمصر. أنا لست في وضع يمكنني من عرض المال عليك، لكن إذا استطعتِ أن تجدي طريقة للذهاب إلى أسيوط يمكننا توفير الطعام والإقامة لك ويمكنك أن تعملي معنا".

وقفت ليليان واتجهت للنافذة. هل يمكن أن تكون هذه خطوة الله التالية لها؟. مصر في أفريقيا، والغريب أن ينتهي بها الأمر للإقامة في واشنطن مع هؤلاء الكارزين. وأثناء مشاهدتها للأمطار وهي تهطل، بدأ قلبها يخفق بقوة من الفرح. فقد عرفت أن هذه هي الخطوة التالية لها. استدارت نحو السيد برلسفورد والدموع تملأ وجهها وقالت: "شكراً. إنني أقبل هذا العرض".

في هذه الليلة استطاعت ليليان بصعوبة أن تنام. فقد عرفت منذ عدة أسابيع أنها ستعمل في خدمة الكرازة. لكنها الآن عرفت إلى أين تتجه؛ إلى أسيوط في مصر. درست ليليان خريطة الآنسة أوليفير وعرفت أن أسيوط تبعد مائتي ميل جنوبي القاهرة

على ضفاف نهر النيل.

وفي اليوم التالي وصلت الثمانية عشر دولاراً من ماتي بيري، واستطاعت ليليان أن تستقل القطار لباقي المسافة إلى بتسبرج. كان المؤتمر أروع مما تخيلت ليليان. وفي نهايته، أصبحت ليليان مقتنعة أن الله دعاها لمصر برغم أنها لا تمتلك مالاً يكفي لتسافر أبعد من نيويورك. وبدون تأخير، انطلقت إلى محطة القطار مع السيد برلسفورد الذي حضر أيضاً المؤتمر. كان القس متجهاً للجنوب في رحلة كرازة قبل عودته إلى مصر. وعندما ذهب لشراء تذكرة اكتشف أنه ينقصه بعض الدولارات ليكمل قيمتها. وبدون تفكير في احتياجها الشخصي أخرجت ليليان حافظة نقودها وأعطته ما ينقصه من ثمن التذكرة. وبعد أن لوحت للقس بالوداع، أخذت ليليان تعد النقود فوجدت أن ما معها لا يكفي سوى للذهاب إلى هاريسبرج في بنسلفانيا.

حينما ركبت ليليان القطار تذكرت أن أحد الأصدقاء من الكنيسة التي في أشفيل أعطاها عنوان أسرة مسيحية في هاريسبرج. ومرة أخرى ذهبت لبيت غير معروف بالنسبة لها، وعرّفتهم بنفسها، وقدموا طعاماً وسريراً لتقضي الليلة.

أثناء صلاتها هذه الليلة، شعرت أنها ستكون في نيويورك يوم الأحد القادم. في الصباح التالي طلبت أن تمكث يومين آخرين،

حتى يوم السبت صباحاً. ثم عرض رب الأسرة على ليليان أن يرافقها لمحطة القطار. لم تذكر ليليان شيئاً عن احتياجها للمال. وعندما وصلا لمكتب التذاكر قال الرجل: "هل معك ثمن التذكرة؟ ". أجابت ليليان: "كلا. ليس معي المال الكافي. في الحقيقة ليس معي أية نقود". التفت الرجل إليها وهز رأسه وقال: "يسعدني بالتأكيد أن أدفع لك ثمن الرحلة إلى نيويورك. لكن هذا لا يقارن بما تحتاجين إليه للذهاب إلى مصر. ما هي توقعاتك للحصول على هذا المال؟". ابتسمت ليليان وهي تقول: "إذا كان الرب يريدني هناك، فسيأخذني إلى هناك. إنني أؤمن أنه يهتم بهذا الاحتياج الآن". أجاب الرجل وهو يفتح محفظته: " أتمنى أن تكوني على حق". شكرته ليليان وركبت القطار.

وصلت إلى نيويورك وهي مجهدة لكنها كانت سعيدة أن المرحلة الأولى من رحلتها قد تمت. كان هذا في يوليو ١٩١٠. وتوجهت إلى مقر إرسالية الأخبار السارة، وأقامت فيه لبعض الوقت. وفي يوم الأحد تحدثت في اجتماع الإرسالية. ثم دعوها للحديث في عدة لقاءات للإرسالية ولبعض كنائس المدينة. وتم جمع تبرع لها. وبنهاية أغسطس أصبح معها أربعون دولاراً. أخذت ليليان كل ما معها من نقود لمكتب توماس كوك للرحلات ودفعته تحت حساب سفرها إلى مصر. وكان ينقصها ٦٠

دولاراً لكنها وثقت أن الله سيرسل بقية النقود. كتبت لوالديها ولأختها جيني تخبرهم أنها ستبحر إلى أفريقيا في الثامن من أكتوبر.

لم يجب والدا ليليان عليها مباشرة لكن جيني أجابتها بأكثر العروض إثارة. كتبت جيني تقول أنها قلقة من أن تمرض ليليان أثناء رحلتها ولا تجد من يرعاها ويهتم بها، فلذلك قررت أن تسافر معها. كان هذا ممكناً مالياً لأن جيني اشترت بيتاً خشبياً تؤجره بجوار بيتها الذي تسكن فيه في لونج بيتش. فإذا أجّرت الاثنين فسيتوفر لها المال الكافي لتعيش عدة شهور. وأضافت جيني أنها تنوي الإقامة في مصر إلى أن تطمئن على استقرار ليليان. فرحت ليليان بهذا الخبر. إنه أمر رائع أن تصحبها أختها في هذه الرحلة.

في السادس من أكتوبر وهو اليوم السابق لوصول جيني لنيويورك. مازال ينقص ليليان ستون دولاراً لاستكمال ثمن التذكرة. في الحقيقة خافت ليليان أن تخبر جيني بهذا الأمر، فهي لا تفهم الحياة بالإيمان كما تحياها ليليان. في هذا اليوم ظلت ليليان مستلقية على سريرها قلقاً. لم يكن في مقر الإرسالية سواها في هذا الوقت من اليوم. لذلك عندما سمعت طرقاً قوياً على الباب اضطرت أن تقوم وتفتح الباب. تعثرت ليليان في

طريقها للباب ووجدت هناك امرأة غريبة. سألتها المرأة: "هل يمكنني الدخول؟". أجابت ليليان وهي تفتح الباب:"بالتأكيد". قالت المرأة وهي تدخل باندفاع: "حسناً، لابد أنك ليليان تراشر. هل يمكنني أن أسألك ما هي خطتك ؟". شعرت ليليان بالإجهاد فلم تتكلم كثيراً، ولم يكن لديها فكرة من هي هذه المرأة. فأجابتها باختصار أنها في طريقها إلى أسيوط في مصر يوم ٨ أكتوبر.

ظلت المرأة تلاحقها بالأسئلة، ماذا تريد أن تفعل في مصر؟، من سيذهب معها؟، ما تكلفة الذهاب إلى هناك؟. أجابت ليليان كل الأسئلة باندهاش ثم أخذت تراقبها بذهول وهي تركع أمامها وتصلي شاكرة الله لتسديده احتياجات ليليان. أغلقت ليليان عينيها بينما استمرت المرأة في الصلاة. وكما جثت على ركبتيها فجأة وقفت وقالت: "لا بد أن أمضي". ثم فتحت حافظة نقودها وناولت ليليان شيئاً ما في يدها وقالت:"خذي هذا". وبدون أن تنطق بكلمة أخرى مضت في طريقها. فتحت ليليان يدها لتجد ستين دولاراً!. وبذلك أصبح معها بقية تكاليف السفر. أسرعت نحو الباب لترى في أي اتجاه مضت المرأة، لكنها كانت قد ذابت وسط جموع الناس في الشارع. فأخذت ليليان تردد عبارات الشكر: "شكراً لك يا يسوع، شكراً لك".

في اليوم التالي ذهبت ليليان لاستقبال جيني في محطة القطار

وأخبرتها أنها دفعت ثمن تذكرتها. ذهبت جيني مباشرة لمكتب توماس كوك ودفعت ثمن التذكرة التي حجزتها ليليان لها.

وفي المساء ذهبتا معاً إلى اجتماع خدمة الكرازة حيث جمعوا تبرعاً لليليان قدره خمسون دولاراً. كما أعطاها أحدهم عشرين دولاراً أخرى. كل هذا جعل ليليان ترتجف وكتبت في يومياتها في هذه الليلة: "إلهي يسدد كل الاحتياجات". وهو ما حدث معها منذ أن تركت نورث كارولينا ومعها دولار واحد والآن وبعد ثلاثة أشهر يتبقى لها يوم واحد على إبحارها إلى مصر.

باكراً في صباح اليوم التالي كانت ليليان في غاية الإثارة، فقد أصبحت أخيراً على متن الباخرة إس إس برلين. جاء كثيرون من أصدقائها في إرسالية الأخبار السارة لوداعها. وقال أحدهم: "ليليان، قبل أن تذهبي لماذا لا تفتحين الكتاب المقدس لتقرأي أول آية تقع عليها عيناك". قبلت ليليان ذلك وأغلقت عينيها وأخذت تقلب الصفحات ثم توقفت بأصبعها عند صفحة. فقرأت الآية التي تحت أصبعها:" قد رأيت مذلة شعبي الذي في مصر وسمعت صراخهم... ونزلت لأنقذهم... فالآن هلم فأرسلك إلى... مصر". قالت صديقة متعجبة:"إن هذا مدهش. لم يسبق لي أن قرأت هذه الآية من قبل". أجابت ليليان والقشعريرة تسري في بدنها: "ولا أنا. ترى، ماذا ينتظرني هناك ؟ ".

* * * * * * * * * *

الفصل الخامس

أسيوط

في العاشر من نوفمبر ١٩١٠ وبعد شهر ويومين من بداية الإبحار من نيويورك ألقت ليليان نظرتها الأولى على ميناء الإسكندرية بمصر. كان الوقت فجراً وقد طلبت من المضيف أن يوقظها بمجرد أن يظهر الشاطيء على مرمى البصر. وقفت على ظهر السفينة تتأمل الشاطىء الطويل برماله البيضاء والذي يحتضن البحر المتوسط . وفي الطرف البعيد من الشاطيء تظهر المدينة العتيقة في الأفق، وتلمع مبانيها البيضاء في ضوء شمس الصباح الباكر.

كان أغلب المسافرين على ظهر السفينة متحمسين لرؤية دخول السفينة ميناء الإسكندرية ورؤية الأهرامات وأبي الهول في الجيزة. لكن عقل ليليان انشغل بأمور أهم. فعلى بعد ثلاثمائة ميل جنوب الإسكندرية تقع أسيوط، حيث يوجد قلبها.

ومع ارتفاع الشمس في السماء، انضم مسافرون آخرون من بينهم جيني إلى ليليان على ظهر السفينة يشاهدون السفينة وهي في طريقها داخل الميناء. كان المنظر مختلفاً تماماً عن كل ما رأته ليليان من قبل. فالمباني تبرز من طرف الميناء، وواجهاتها

ذات الطوب المتآكل تبرز قدمها. وتسير بينها المباني جمال محملة وحمير تجر عربات. وكلما اقتربت السفينة من المرفأ، ازداد صوت الجموع الذين ينتظرون وصولها.

انبهرت ليليان جداً بالمنظر الذي أمامها،حتى أنها لم تتنبه إلى أن السفينة رست وبدأ الركاب في النزول إلى البر. وبسرعة نزلت من على السطح للكابينة التي تقيم بها وجمعت بقية متعلقاتها في حقيبتها. فقد حان وقت الرحيل.

سمعت ليليان صوت شاب يناديها بين جموع الناس المزدحمة قائلاً: "آنسة تراشر، آنسة تراشر". لوحت له ليليان وهي سعيدة لأنها طويلة مما يتيح لها أن ترى من فوق رؤوس الجموع. كان هناك شاب صغير يلوح لها في الخلف ويحاول إيجاد طريقه بين الزحام ليصل إليها. قال لها: "أنا كميل. القس برلسفورد أرسلني من أسيوط. أنت ليليان أليس كذلك ؟". كان يتكلم بلهجة إنجليزية فصيحة مما جعلها تود الضحك. أجابت: "نعم، وهذه أختي جيني تراشر. إنه أمر مثير أن نكون هنا. ليتك تساعدنا في حمل حقائبنا وإنهاء إجراءات الجمارك والجوازات، وبعد ذلك نذهب معك". أجاب كميل: "بالتأكيد. إنني أعرف تماماً كيفية القيام بهذه الإجراءات. اتبعاني". وكما قال، ففي أقل من ساعة قاد كميل الشابتين بأمان خلال إجراءات الوصول على أرض مصر. وبعد

قليل كان ثلاثتهم في طريقهم عبر المدينة في عربة تجرها الخيل. جلست ليليان مفتونة وهم يمرون بالأسواق المزدحمة الممتلئة ببائعي الفاكهة والخضروات، وبائعي المياه يحملونها في قِرب من جلد، وبائعي الأدوات النحاسية والأقمشة وأصناف كثيرة أخرى . كانت جموع الناس حولهم في كل مكان. وكانوا يتدفقون من الحواري الضيقة إلى الشوارع المتسعة حيث كان ثلاثتهم يمرون بالحنطور عليها. كان الهواء رطباً ، وشمس الظهيرة ترسل أشعتها الساخنة على الجميع.

في النهاية وصل ثلاثتهم لمحطة القطار. شحن كميل الحقائب في عربة الحقائب. ثم ساعد ليليان وجيني في دخول عربة الدرجة الثالثة بالقطار. وأوضح لهما أن المحطة القادمة للقطار هي القاهرة بعد مائة وعشرة أميال في جنوب شرقي الإسكندرية بعدها يكمل القطار طريقه إلى أسيوط. وكما فعلت أثناء ركوب عربة الخيل بدأت ليليان تلاحظ كل التفاصيل؛ الأكواخ الطينية المتراصة على ضفاف نهر النيل، والرجال يقودون الحمير وفوقها أحمال ثقيلة، ونخيل البلح ينمو في كل مكان، وسواقي المياه تضخ المياه من النيل إلى قنوات الري لتصل بالمياه للأراضي العطشى. صدمت ليليان بمدى تأخر كل ما تراه. ففيما عـدا قطار السكك الحديدية لـم ترَ كثيراً من الحضارة الحديثة.

شعرت ليليان وكأنها تشاهد إحدى قصص الكتاب المقدس.

توقف القطار في محطة القاهرة ونصحهما كميل بالبقاء في مكانيهما. جلست ليليان تشاهد الناس يحملون سلالاً فوق رؤوسهم ويبحثون عن مقاعد في القطار المتجه جنوباً. ورأت بعض الصبيان يلقون بمتعلقاتهم من خلال النوافذ فوق مقاعد القطار التي يريدون الجلوس عليها ثم يغوصون بأجسادهم عبر النوافذ خلف المتعلقات. وكما في الإسكندرية اكتظ الرصيف بالناس. ورأت أيضاً رجلاً أعمى على الرصيف يستعطي. كان كل شيء مختلفاً تماماً عن نيويورك أو أشفيل أو أتلانتا.

بعد قليل تحرك القطار ليقطع المئتي ميل الأخيرة في الرحلة. وفيما هم يغادرون القاهرة تلونت السماء باللون الذهبي. أخبرهما كميل أن هذا اللون بسبب الرياح المحملة بالرمال. لكن ليليان رأت أن هذا شيء جميل. فقد أعطى اللون الذهبي كل شيء وهجاً جديداً أثناء رحلة القطار في وادي النيل.

قال كميل بفخر إن أسيوط أجمل مدينة في مصر. تنفست ليليان الصعداء. فقد جاءت لمصر وهي تعتقد أنها ستعيش في صحراء. ولم يخبرها أحد عن جمال أسيوط. فالمدينة تقع بجانب النيل وهي مدينة خضراء، حيث ينمو النخيل في كل مكان ويغلف المكان بغطاء أخضر. برزت تلال خلف المدينة، وقال

كميل أن تلك التلال معروفة باسم تلال النساك.

عندما أطلق القطار صفيره بالتوقف في أسيوط، قادهما كميل خارج العربة وتأكد أن الحقائب تم إنزالها على رصيف المحطة. ثم استأجر عربة يجرها حصان لكنها لم تكن مزخرفة مثل التي ركبوها في الإسكندرية. وركبوا جميعهم. حاولت ليليان أن تحفظ كل أركان الشوارع وكل المباني أثناء سيرهم في الطريق. وكانت تأمل أن تصبح هذه الشوارع مألوفة لديها مثلما كانت شوارع نورث كارولينا. وفي دقائق وصل الحنطور لمحطة خارج مبنى ممتد وقصير. أعلن كميل قائلاً: "ها نحن قد وصلنا، وقبل الوقت المفترض أيضاً".

قفزت ليليان من العربة وعدلت قبعتها. كانت تعلم أنها ليست في أفضل صورة بعد الرحلة الطويلة الشاقة وفي مثل هذا الجو الحار في قطار مُترب. لكنها لم تهتم بذلك، فقد وصلت أخيراً وهذا كل ما يهمها. وها قد أصبحت خارج مبنى إدارة خدمة الكرازة في أسيوط بمصر. غطت قشعريرة ذراعيها وهي تسير في الممر نحو الباب. انفتح الباب قبل أن يصلوا إليه وخرجت مدام برلسفورد ترحب بهم :"مرحباً. تفضلوا لتناول فنجان من الشاي. فلا بد أنكم متعبون". لم تستغرق ليليان وقتاً كثيراً لتشعر وكأنها في بيتها. فهذا البيت هو مركز أنشطة كرازة القداسة في

المنطقة. وشعرت ليليان بسرعة أنها منجذبة لكارزة اسمها سيلا فريند. كانت سيلا تكبر ليليان سناً وكانت ممتلئة بالثقة بالنفس. كانت سيلا تساعد ليليان أكثر من أي شخص آخر للتأقلم على حياة خدمة الكرازة. فأخذت تقضي الساعات معها تعلمها اللغة العربية وتأخذها لتشاهد المناطق الأثرية في المدينة. وأثناء هذه الجولات تحكي لها عن تاريخ مدينة أسيوط. شرحت لها أن المدينة ظلت موطناً للأقباط المسيحيين لمدة قرون. وأن الكنيسة القبطية في مصر نشأت بالقرب من الإسكندرية، من حوالي تسعة عشر قرناً، حيث أسس القديس مرقس الرسول الكنيسة الأولى في مصر. وقبل الكثيرون رسالة الإنجيل في هذا الوقت. والآن يعيش الكثير من نسلهم في أسيوط ومدن أخرى.

كانت جيني تذهب أحياناً معهما في جولاتهما حول المدينة ولكن ليس دائماً. فهي لم تأتِ للكرازة بل للاطمئنان على سلامة أختها وسعادتها. وعندما تطمئن عليها ستعود إلى كاليفورنيا.

بعد مرور ثلاثة أسابيع على وصول ليليان لأسيوط، ابتدأت سيلا تأخذها في زيارات للسيدات في المدينة. واندهشت ليليان جداً عندما رأت حفاوة وأخلاق هؤلاء السيدات وكرم ضيافتهن. وفي أحد البيوت التي زارتاها، ذبحت الأسرة آخر دجاجة لديها لتأكل سيلا وليليان معهم. وهذا الأمر لمس قلب ليليان بعمق.

وبسرعة حل فصل الشتاء. وازدادت برودة الجو خاصة في الليل. وكانت ليليان وجيني تجلسان معاً للاستدفاء. وكانت صلاة ليليان دائماً قبل النوم يومياً هي من أجل الأسر الفقيرة التي لا تمتلك البطاطين لتستدفئ.. كانت ليليان تعلم أن جيني لا تحب الجو البارد، لكن كل مرة تسأل ليليان أختها متى تعود للولايات المتحدة، تجيب أنها تريد البقاء لوقت أطول.

ظل كل شيء يسير بهدوء حتى ظهيرة أحد أيام الآحاد من شهر فبراير عام ١٩١١ بعد حوالي ثلاثة أشهر من وصول ليليان لأسيوط. لم تستطع ليليان شرح ما يؤرقها، لكنها أحست أن هناك أمراً يسير بطريقة خاطئة. لم تعلن هذا لجيني فسيكون بلا معنى أن تقلقها بدون سبب واضح. وبدلاً من ذلك أخذت ليليان تصلي وتنتظر. وفي المساء وبعد العشاء والصلاة الجماعية، سمعوا طرقاً عنيفاً على الباب. قفزت ليليان لتفتح فوجدت أمامها شاباً تبدو عليه علامات اليأس الشديد. ورغم أن ما تعرفه من اللغة العربية محدود إلا أنها أدركت أن هذا الشاب يريد أن يذهب معه أي شخص بسرعة. ترجم كميل ما يقوله: "يقول إن زوجته الشابة في حالة احتضار وهو يريد المساعدة". وبطريقة ما عرفت ليليان أن هذا الشاب جاء خصيصاً من أجلها هي. استدارت ليليان نحو القس برلسفورد وقالت له: "اسمح لي

أن أذهب معه". نظر القس نحو الجالسين، لكن لم يظهر أي شخص آخر الاهتمام والرغبة في الخروج في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل. قال لها: "حسناً جداً، خُذي كميل معك ليرافقك لحمايتك". ثم عرضت سيلا قائلة: "يمكنني الذهاب معك إذا أردت ذلك". أجابتها ليليان: "من فضلك تعالي معي".

فجأة بدأت ليليان تدرك جدية الموقف الذي وضعت نفسها فيه. بحثت سيلا عن شالها الأزرق الصوفي. همست جيني وهي تعطي ليليان شالاً: "كوني حريصة يا ليليان". وبسبب هذا التعليق تساءلت ليليان إن كانت جيني تشعر أن شيئاً هاماً على وشك أن يحدث مثلما تشعر هي. أسرع الثلاثة مع الرجل عبر الشوارع المظلمة. وفي خلال دقائق وصلوا إلى منطقة في المدينة لم تكن ليليان قد زارتها من قبل. كانت هذه المنطقة بجوار نهر النيل، والبيوت فيها أكواخ قصيرة من الطين لها أبواب منخفضة وبدون نوافذ. وفي ضوء القمر أخذهم الشاب في طرق كثيرة عبر الأكواخ، حتى انحنى ودخل في أحدها. تبعه الباقون حيث وجدوا أنفسهم في ظلام تام. تركوا باب الكوخ مفتوحاً خلفهم، وانتظروا حتى اعتادت أعينهم على الظلام. وفي ضوء القمر الخافت استطاعت ليليان أن تحدد شكل امرأة عجوز تحمل لفافة على رجليها، بينما فتاة أخرى ترقد بجوار الحائط البعيد. ركعت

ليليان أمام فراش الفتاة وجست نبضها فوجدته خافتاً. فتحت الفتاة عينيها وأمسكت بذراع ليليان بحركة فجائية وقالت متوسلة باللغة العربية: "أرجوكِ، أرجوكِ". كانت ليليان تعلم معنى هذه الكلمة. فاستدارت نحو كميل وقالت له: "اسألها ماذا تريد". وبعد أن قالت ما تريده، خرج صراخ خافت من اللفة التي مع المرأة العجوز. لقد كان هذا بدون شك صوت رضيع يصرخ. زحفت ليليان على ركبتيها باتجاه الصوت ومدت يديها لتأخذ الرضيع. ثم ذهبت عند الباب لتفحص الطفل في ضوء القمر. عادت ليليان مفزوعة، فالطفل يبدو كهيكل عظمي وهو ملفوف بشنطة من الورق، وحركة عينيه هي الشيء الوحيد الذي يجعله يبدو ككائن بشري. ثم بدأ الطفل في الصراخ مرة أخرى. وإذ استمرت في النظر إليه، سرت فيها موجة من الحب وغمرتها. هذا الطفل الضعيف يتضور جوعاً حتى الموت، بينما أمه التي لم تبلغ بعد السادسة عشر على وشك الموت. كانت العجوز التي توقعت ليليان أنها الجدة تجلس بلا حراك وظلت تنظر إليهم. بدأت الدموع تنهمر من عيني ليليان وهي تفكر في الموقف البائس الذي يواجه هذه العائلة والمستقبل الصعب الذي ينتظر هذا الرضيع. تنهدت ثم انحنت لتقبل الطفل وبعدها نظرت للأم.

قالت الأم قبل أن تسكت للأبد: "أرجوكِ خذيها". انحنت سيلا

لتجس نبضها ثم قالت بصوت منخفض: "لقد ماتت. ليكن الرب معها". اتجه كميل لليليان وقال: "هل تعرفين ماذا قالت الفتاة قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة ؟". هزت ليليان رأسها وقالت: "أعرف كلمة أرجوك لكن لا أعرف باقي الكلمات". قال: "تريدك أن تأخذي الرضيع". وقفت ليليان متسمرة في مكانها. وفيما عدا صراخ الرضيع لم يكن هناك أي صوت آخر. فالشاب الذي قادهم للكوخ هرب في الظلام قبل أن يستطيع أي شخص أن يسأله أي سؤال. أخيراً قطع كميل الصمت قائلاً: "بالطبع، لا يمكنك أن تفكري في الاحتفاظ بالرضيع. فستجد المرأة العجوز طريقة للتعامل مع الموقف. كما أن الرضيع لن يعيش طويلاً".

وقفت المرأة العجوز وبجرأة ذهبت لليليان وقالت لها بعض العبارات باللغة العربية بصوت مرتفع. هز كميل أكتافه والتفت نحو ليليان وقال: "إنها أيضاً تريدك أن تأخذي الرضيع، لأنها لا تعرف ماذا يمكنها أن تفعل به". أخذت ليليان تراقب المرأة وهي تتحرك للباب ثم تنظر باتجاه النيل، ثم همست ببعض الكلمات. سألت ليليان كميل: "ماذا قالت؟". قال كميل: "قالت: على أي حال هي بنت. فلا يهم إن ماتت".

ازداد الحنق والضيق داخل ليليان. وهي تقول لنفسها: "هل تفكر هذه المرأة أن تلقي بالطفلة في النهر إذا ذهبت وتركتها؟".

لقد كانت ليليان تحمل كائناً بشرياً، يحاول أن يتمسك بالحياة. إنه كائن بشري وليس أقل من ذلك.

وبدون أن تتوقف للتفكير فيما يجب أن تفعله، حملت ليليان الرضيعة بقرب قلبها ومضت مسرعة أمام سيلا وكميل. وبخطوات واسعة أخذت طريقها نحو مقر الإرسالية بمفردها. همست للطفلة وهي مسرعة في الطريق: "سأجد طريقة للعناية بكِ، بالتأكيد سوف يتركني القس برلسفورد وزوجته أعتني بطفلة بائسة وصغيرة مثلك".

* * * * * * * * * *

الفصل السادس

فريدة

لم يكن الطريق مألوفاً بالنسبة لليليان، فأخذت تتعثر في الصخور والشجيرات الصغيرة وهي تحمل الرضيعة عائدة لمقر خدمة الكرازة وتمشي أبطأ من كميل وسيلا. لذلك استغرقت ساعة في الوصول ودخلت من الباب الخلفي للمقر على أطراف أصابعها متجهة لحجرتها التي تشاركها فيها جيني. قالت جيني وهي واقفة تستقبل ليليان: "لقد عاد كميل وسيلا وأخبراني أن معك طفلة رضيعة. دعيني ألقي نظرة عليها". اتجهت ليليان إليها لتريها الطفلة. قالت ليليان: "ينبغي علينا أن ننزع عنها هذه الملابس ونعطيها حماماً. فيالها من طفلة مسكينة". ثم أخذت تنزع عنها الملابس القذرة تحت ضوء قوي لأول مرة. "انظري؛ إن الملابس ملتصقة بجسدها. لست مندهشة لوجود هذه الرائحة الكريهة. فليست هناك طريقة لتغيير الحفاضات".

تحركت جيني نحو الباب وهي تقول: "عندي بعض اللبن. سأدفئه على سخان الكيروسين بينما تنزعين أنتِ الملابس عنها. وعندي كذلك كومة من الأقمشة النظيفة في دولاب النظافة. يمكن أن نصنع منها حفاضات جيدة". فرشت ليليان أحد الأقمشة

على سريرها ووضعت الطفلة عليه. وبحرص شديد بدأت تقص القماش بمقاس الطفلة، وأخذت تنشد بأحد أعداد ترنيمة مفضلة لديها. أكدت ليليان للطفلة وهي تنظفها أنها لن تعود مرة أخرى للحالة التي تجعل الآخرين يشمئزون منها. وعندما نزعت عنها ما كانت ترتديه، استطاعت أن ترى كم كان جلد الطفلة ضعيفاً ورقيقاً. وكانت عظامها تشبه عظام الدجاجة.

قرعت سيلا الباب برفق ودخلت الحجرة. ابتسمت لليليان، ثم أخذت أحد الأغطية القديمة وأخذت تقصها لتصبح نموذج فستان بسيط مناسب للطفلة. ثم جلست بجوار المصباح وابتدأت في حياكة قطع القماش معاً. نظرت إليها ليليان بامتنان في نفس اللحظة التي عادت فيها جيني ومعها بعض اللبن الدافيء ودلو به ماء دافيء. أمسكت ليليان بالطفلة الرضيعة ووضعتها في الماء وبدأت تغسل جسمها برفق. أطلقت الرضيعة صراخاً عالياً جعل ليليان تندهش. قالت : "هش، هش، ستحصلين على اللبن في خلال دقائق بعد الحمام".

استغرق الحمام بعض الوقت. ولم تكن ليليان سعيدة بالنتائج. فبرغم أن شعر الطفلة لم يكن ملبداً وكل القذارة زالت من جسدها، إلا أن رائحة العفونة ظلت شديدة. فهمت ليليان أن الرائحة قد التصقت بجسد الصغيرة فقررت أن تنظف جروحها

باستمرار وتعرضها للهواء المتجدد وأشعة الشمس. ثم بدأت تطعمها اللبن قطرة فقطرة مستخدمة قطارة عيون فارغة نظيفة. تذكرت ليليان كل الأيتام الصغار الذين كانت تطعمهم في ملجأ نورث كارولينا، وكانت سعيدة بأن لديها هذه الخبرة، برغم أنه لم يكن هناك طفل يتضور جوعاً مثل هذه الطفلة الضعيفة.

وحتى مع خبرة ليليان في رعاية الأطفال لم تستطع أن تضع لبناً كثيراً في فمها بسبب بكائها المتواصل وكان اللبن الذي ينزل لجوفها قليلاً جداً. ظلت الطفلة تبكي طوال الليل، وتسكت فقط عندما تتعب وتنام لدقائق قليلة. فكانت تستغل ليليان كل فرصة لتضع بعض اللبن في فمها الصغير ثم تدلك حلقها حتى تبتلعه.

كانت ليليان قلقة من أن يوقظ صراخ الطفلة الكارزين في المنزل، لأن حوائط المنزل رقيقة. لكن ليس في إمكانها أن تفعل شيئاً. لقد جربت كل ما تعرفه عن كيفية إسكات الأطفال ولم يفلح. استطاعت جيني أن تنام بصعوبة هذه الليلة. وفي أثناء الإفطار قررت الشابات معاً أن يعطين الطفلة اسماً مصرياً هو فريدة. قضت ليليان وجيني النهار بأكمله في الاعتناء بفريدة. فكانتا تتناوبان في إطعامها وحياكة الملابس لها. وفي هذه الليلة أيضاً أخذت الطفلة تبكي بدون انقطاع حتى أنها كانت تبدو في الصباح أنحف من ذي قبل. اعتقدت ليليان أن فريدة تحتضر

لكنها لم تيأس. تركزت حياة ليليان وجيني حول الطفلة لمدة عشرة أيام. فكل مرة تبلع اللبن يعد انتصاراً لهما وكل دقيقة تنامها راحة لهما. وبمرور الأيام لاحظت ليليان أن باقي الكارزين في المنزل أصبحوا أكثر ضيقاً. فقد تورمت عيونهم من قلة النوم ويتثاءبون كثيراً أثناء جلوسهم على المنضدة لتناول الإفطار. ويبدي العديدون منهم تعليقاً على الطفلة أنها لم تنم سوى القليل في الليلة الماضية، وعن مدى قوة رئتيها.

أخيراً تعلقت فريدة بالحياة لمدة أسبوعين. وفي صباح أحد الأيام طلب القس برلسفورد من ليليان أن تذهب لمكتبه. تركت ليليان جيني مع فريدة وسارت نحو المكتب وبداخلها شعور بالخوف. دعاها السيد برلسفورد للجلوس ثم دخل مباشرة في الموضع قائلاً: "لقد عقدنا اجتماعاً معاً واتفقنا كلنا على أن مقر خدمة الكرازة ليس مكاناً لطفلة مريضة. فهي تبكي طوال الليل مما يجعلنا جميعاً غير قادرين على النوم، وبالتالي لا يكون لدينا قوة خلال اليوم على مواصلة أعمالنا". سكت ليتطلع إلى وجه ليليان ثم أكمل حديثه: "إنني آسف. لكن يجب أن تعيدي الطفلة إلى أهلها مرة أخرى". شهقت ليليان وهي تقول: "أعيدها؟. إلى أين يمكنني أن أعيدها؟. فليس لها مكان تذهب إليه. فقد ماتت أمها، ولست أعرف من يكون الشاب والمرأة العجوز اللذين كانا

هناك. لا يمكنني أن أعيدها". قال السيد برلسفورد: "يجب عليك أن تفعلي هذا حالاً فلا يمكنها أن تمضي ليلة واحدة أخرى في هذا المكان". كررت ليليان قائلة: "إلى أين يمكنني أن أعيدها؟". كانت تعلم أنها تبدو حمقاء، لكن من الصعب عليها إدراك أن قائد خدمة الكرازة يريدها أن تترك الطفلة المسكينة فسألته :"هل يوجد ملجأ يمكن أن نضعها فيه؟". هز رأسه وقال: "ليس في مصر ملاجيء، فلو كان لامتلأ بالأطفال. يجب عليك أن تبحثي عن بعض أقارب الطفلة ليأخذوها".

ارتجف جسد ليليان وهي تفكر في المرأة العجوز التي كانت تحمل فريدة عندما ماتت أمها والتي كانت تنظر باتجاه النيل. فبالتأكيد سوف يكون هذا هو مكان نهاية الطفلة لو عادت إليها. شعرت ليليان بأن عينيها قد امتلأتا بالدموع. كانت تريد أن تسأل هذا الكارز كيف يمكنه أن يبعد طفلة في احتياج شديد، ولكنها أمسكت لسانها. فليس هناك جدوى من تحدي سلطة السيد برلسفورد في إدارة المقر. وبدلاً من ذلك وقفت ليليان واتجهت نحو الباب، وقبل أن تترك الحجرة استدارت إليه وقالت: "حسناً أنت تطلب مني أن أعيدها. سوف أفعل لكنني سأذهب معها". رأت ليليان وجهه وقد امتلأ بالضجر الشديد كنتيجة لما قالته. ثم صرخ قائلاً: "بمفردك؟. ليليان لو قضيت هنا فترة أطول

لأدركت أنه من المستحيل على فتاة أمريكية أن تعيش بمفردها في العالم العربي. سيقتلونك أو تموتين جوعاً". حتى الآن كانت كلمات ليليان تعطيها شجاعة، فهي تعلم أنها تفعل الصواب. أجابت قائلة: "لن أكون بمفردي. فالله معي".

بدا السيد برلسفورد وكأن الكلام هرب منه. وفي النهاية وقف ونظر إلى ليليان في عينيها وقال: "حسناً. لكنني حذرتك. ولو تركتي هذا البيت مع الطفلة فستتركينه بدون إذني. إذهبي وافعلي ما تريدين. لكن لو لم تسر الأمور بطريقة جيدة، لا تعودي هنا مرة أخرى متوسلة طلباً للمساعدة ".

وقفت ليليان متسمرة في مكانها للحظة من الزمان. فهذا هو نفس الأسلوب الذي تكلم به معها قبلاً في واشنطن في الخريف الماضي. ثم أخذت طريقها خارج المكتب.

كانت ليليان تحتاج إلى هواء نقي بعد هذه المناقشة الساخنة. فلذلك تركت المنزل وبدأت تمشي في الشوارع المتربة. سألت نفسها: "ماذا فعلت؟". وكإجابة على سؤالها بدأ عقلها يتذكر قصة مريم ويوسف وهما يبحثان في بيت لحم عن مكان للطفل يسوع ليولد فيه. ويبدو أنه لا توجد حجرة في مقر الكرازة لطفلة في احتياج لمأوى. لم تحاول ليليان أن تبقى طويلاً تحت الشعور بالظلم. لكن بدلاً من ذلك أخذت تفكر في مكان يمكن أن تقيم فيه

فتاة أمريكية وطفلة مريضة .

في أثناء سيرها، تذكرت أنها رأت في إحدى زياراتها حول المدينة مع سيلا منزلاً ضيقاً من ثلاثة طوابق معروضاً للإيجار. وتساءلت عما إذا كان المنزل ما زال متاحاً. ورغم عدم تأكدها من مكان المنزل، حاولت تذكر موضعه. استمرت في السير في اتجاه معين وهي تصلي لأجل أن تتمكن من العثور عليه. وبثقة وجدت المنزل. ملأها شعور بالراحة عندما لاحظت أن المنزل ما زال معروضاً للإيجار. فقررت أن تبحث عن المالك، والذي يسكن في المنزل المجاور. وباستخدام لغتها العربية المحدودة استطاعت أن تفهمه أنها تريد استئجار المنزل. أوما المالك بالموافقة وقال لها إنه يريد جنيهين شهرياً مقابل إيجار المنزل. ثم فتح الباب وأخذ ليليان في جولة داخل المنزل. كان قذراً وممتلئاً بخيوط العنكبوت، لكنها لاحظت أن البيت متين وقوي. وبعد أن يتم تنظيفه سيعود لبلاط الأرضية لمعانه. وعلاوة على ذلك يمكن لليليان أن ترى نهر النيل من خلال النافذة.

قالت ليليان: "سوف آخذ البيت". ولحسن الحظ شعرت هذا الصباح أنها يجب أن تأخذ نقودها من حقيبتها وتضعها في جيب فستانها وقد عرفت السبب. فأخرجت النقود وأعطتها للمالك. ابتسم المالك وأخذ النقود. وهكذا تم الاتفاق. والآن أصبح لدى

ليليان مكان خاص بها لتعيش فيه. وبدون أن تضيع الوقت ذهبت للسوق واشترت منضدة وأربعة مقاعد وبعض البطاطين وموقداً يعمل بالكيروسين لطهي الطعام. وقررت أنه لا ينبغي تبديد المال في شراء سرير، فيمكنها أن تصنع واحداً من فروع النخيل الجافة. ثم دفعت لأحد الصبيان نقوداً ليحمل مشترواتها معها إلى المنزل. وبعد أن رتبت الأثاث، قفز إلى ذهنها سؤال. ماذا عن جيني؟. ماذا سيكون رأيها في الحياة وسط المصريين؟. هل ستوافق السيد برلسفورد أن الأمر كله حماقة؟. إن جيني في هذه اللحظة في الحجرة ترعى فريدة. وربما تعتقد أن ليليان ما زالت في المكتب تتحدث مع السيد برلسفورد، بينما هي تقف الآن في منزل جديد استأجرته واشترت له بعض الأثاث. كان ممكناً أن تقرر ليليان كيف تعيش حياتها الخاصة، لكن عليها أن تسأل جيني عما إذا كانت تريد مشاركتها هذه الحياة . لم تشك ليليان للحظة في أن جيني سترغب في المجيء معها إلى هنا. فبرغم أن جيني تكبر ليليان بتسع سنوات إلا أن ليليان كانت دائماً من يأخذ المبادرة ثم تتبعها جيني. وتكره ليليان أن تفكر أنها في اندفاعها أخذت هذا الدور القيادي كأمر بديهي مسلم به.

أغلقت ليليان باب المنزل الجديد خلفها وأسرعت في العودة إلى مقر خدمة الكرازة لتخبر جيني بما قامت به. ولأن جيني قد

أصبحت مرتبطة بفريدة الصغيرة مثل ليليان تماماً، وافقت على أن أختها الصغيرة تحركت بطريقة سليمة لحماية الطفلة. طمأنت ليليان أختها وهما تحزمان أمتعتهما أن معها جنيهين آخرين وقالت لها: "إذا اشترينا الطعام من السوق فسيكون معنا ما يكفي من الطعام لنأكل حتى نهاية الشهر. وبعد ذلك سيكون علينا أن نثق في الله ونتكل عليه في باقي الأمر. أليس كذلك؟". أومأت جيني برأسها موافقة على كلام أختها. في حين وصل السيد برلسفورد أمام باب الحجرة المفتوح.

شعرت ليليان بقلبها وهو يعتصر داخلها. وبدأت تعرق وهي تستدير لتواجهه. كان السيد برلسفورد ينظر بجدية شديدة وهو يقول بصوت أبوي: "لقد أتيت إليك لأطلب منك أن تعيدي النظر في الأمور يا ليليان. لا يوجد ما يدعوكِ أنتِ وجيني لترك هذا المكان. فأنتما شابتان وحيدتان وصغيرتان. وهنا أنتما في أمان وحماية. ويمكنكما الحصول على الطعام. فماذا سيكون لديكما إذا تركتما المنزل ؟. من يساعدكما إذا اقتحم أحدهم بيتكما؟. كيف تحصلان على الطعام لكما ولهذه الطفلة الصغيرة ؟". توقف للحظات ثم أكمل: "خذيها وأعيديها لأهلها. هذا كل ما أسألك أن تفعليه. فهي تنتمي لهم. ويبدو أيضاً أنها لن تبقى على قيد الحياة لمدة طويلة. لماذا تخاطرين بكل شيء من أجل طفلة مريضة؟".

كانت ليليان غاضبة لما قاله من قبل، لكنها تعلم بمدى قلقه عليهما وأنه يريدهما أن تعيشا في أمان. لذلك أخذت تزن الكلمات بحرص وهي تقول: "أرجوك لا تقلق علينا يا سيد برلسفورد. فسنكون في حالة جيدة. الرب معنا ولن يسمح لأي خطر أن يؤذينا". رأت ليليان السيد برلسفورد وقد فتح فمه ليتكلم لكن أغلقه ثانية. ثم هز رأسه واستدار خارجاً من الحجرة.

بعد دقائق قليلة جاءت كارزتان للحجرة وقد بدا عليهما الفزع. قالت إحداهما: "يمكن أن تصيبكما كوارث". لم تجب ليليان بشيء. فاستدارت إحداهما لجيني وقالت متوسلة: "من فضلك فكري في أمانكما. يمكنك أنت أن تبقي هنا حتى لو ذهبت ليليان. فلا يوجد ما يدعو أن تضيعا معاً. فكري في الأمر". هزت جيني رأسها وقالت: "سأذهب مع أختي أينما ذهبت. هل تذكرين قصة راعوث ونُعمي في الكتاب المقدس؟. فأنا راعوث في هذه القصة. وقد ألقيت قرعتي مع ليليان ولن تذهب بدوني".

مسحت ليليان الدموع من على خديها وهي تدرك ثانية الثقة الكاملة التي وضعتها جيني فيها وفي خدمتها. ثم سمعت ليليان صفيراً يأتي من النافذة. نظرت من خلالها لترى رجلاً ومعه حمار يقف في الخارج. لقد وصلت وسيلة الانتقال التي سوف تنقلهما. وبهدوء أمسكت ليليان بالطفلة النائمة وحملتها متجهة

نحو الباب. وهنا دخلت سيلا الحجرة متجهة إليهما. تقابلت عيونهما معاً، ولم تكن أي منهما تحتاج أن تقول أي شيء. فقد كانت ليليان تعلم أن سيلا مؤمنة بما تقوم به ليليان، حتى قبل أن تخلع سيلا شالها الأزرق الصوفي وتضعه على أكتاف ليليان والذي غطى ليليان وفريدة أيضاً. ثم قالت: "كلاكما ستحتاجان إليه. عندما تلبسين هذا الشال، تذكري أنني أصلي من أجلك. وإذا احتجت إليّ، فأنت تعرفين أين يمكنك أن تجديني".

تعانقتا معاً لفترة طويلة، ثم ساعدت سيلا ليليان لتحمل متعلقاتها وتضعها على الحمار المنتظر بالخارج. كان الوقت منتصف النهار. سارت ليليان وجيني والطفلة خلف الحمار في طريقهن لبيتهن الجديد. كان غريباً على ليليان أن تفكر أنه منذ ساعات قليلة لم يكن لديها أدنى فكرة عن الرحيل من المكان. والآن أصبحت على وشك الانتقال لبيت جديد مع جيني والطفلة.

كان البيت الضيق كما تركته ليليان. اجتمع جمع صغير من الناس ليشاهدوا الفتاتين الأمريكيتين والطفلة المصرية وهن يدخلن البيت. لم تكن ليليان تلوم هؤلاء الناس على فضولهم. فهي تعلم أن المشهد غير مألوف بالنسبة لهم.

في هذا المساء كتبت ليليان تاريخ اليوم العاشر من فبراير عام ١٩١١ على قطعة صغيرة من الورق ووضعتها في آخر

الكتاب المقدس. ثم فتحت الكتاب على مزمور ٣٧ وأخذت تقرأ: "من قبل الرب تتثبت خطوات الإنسان وفي طريقه يسرُّ... كنت فتى وقد شخت ولم أرَ صديقاً تُخلي عنه ولا ذرية له تلتمس خبزاً. اليوم كله يترأف ويُقرض ونسله للبركة".

ثم صلت ليليان قائلة: "يارب، لم يتبقَ لنا غيرك الآن. أؤمن أنك تقود خطواتنا. وأؤمن بوعدك أننا لن نتسول من أجل الخبز وأن فريدة ستكون بركة. شكراً من أجل وعدك".

ومع شعور كبير بالإثارة عما يحمله المستقبل، خلدت ليليان تراشر للنوم على سرير من فروع النخيل، بينما الشال الأزرق يحيط بها وبالطفلة فريدة النائمة بأمان بجوارها.

* * * * * * * * * *

الفصل السابع

الطاعون

قالت ليليان في تعجب: "أنظري يا جيني. لقد كبرت فريدة!". قالت هذا وهي تلبسها حفاضات نظيفة قبل أن تضعها في مهدها لتنام في وقت النهار. ثم أضافت: "من ثلاثة أسابيع مضت عندما صنعنا لها هذه الحفاضة كانت واسعة. والآن أنظري، يلزم أن نشدها حتى تلف بطنها".

ذهبت جيني تجاه الطفلة وضحكت قائلة: "بالتأكيد كبرت. ياه يا ليليان من كان يظن هذا؟ إنها الآن تشرب زجاجة حليب كاملة وتنام لمدة ست ساعات. إن الله فعلاً صالح معنا". هزت ليليان رأسها بإيجاب وقالت: "وتوقف الجيران عن إقلاقنا أيضاً. الأمور بالفعل تسير على ما يرام".

ومع نطقها بهذه الكلمات فكرت في الدولاب الفارغ في المطبخ. فبرغم اقتصادهما طوال الفترة الماضية، صرفتا نقودهما كلها. وتبقى بعض الطعام القليل في المنزل، ربما زجاجة حليب واحدة تكفي لإطعام فريدة يوماً واحداً. كما حان موعد دفع الإيجار.

وبمجرد أن وضعت ليليان الطفلة في مكانها، صعدت السلالم متجهة للدور الثالث بالمنزل، حيث كانت تحب أن تصلي.

فجلست على كرسي ووضعت رأسها بين راحتيها. وفجأة انتابها شعور غامر بالدفء، وسكنت الأفكار بعمق داخل قلبها."*كل شيء سيسير على أكمل وجه. فقد أرسلني الله إلى مصر لأعمل على تأسيس ملجأ مسيحي*. وقفت ليليان مذهولة للفكرة. ملجأ في مصر؟ .لكن الأمر يبدو داخلها صحيحاً تماماً، وكأنها كانت تعلم طوال الوقت أن هذا ما أتت لتفعله.

عندما استيقظت فريدة قبل الغذاء، فتحت ليليان زجاجة اللبن قبل الأخيرة لتطعمها. وهي تفتحها بدأت نبضات قلبها في الإسراع وقالت لنفسها: "الآن سأرى الله يتحرك بطريقة عملية".

وفي الصباح التالي، وبالحماس الذي يلهب قلبها للعمل على تأسيس ملجأ، سمعت قرعاً على الباب. كان ساعي البريد الفتى قد أحضر خطاباً من سيلا تدعو فيه ليليان للقائها لتناول العشاء في نهاية الأسبوع. شكرت ليليان الصبي، الذي كان يبدو في الثانية عشر من العمر، لكنه لم يبدِ رغبة في الانصراف. فسألته ليليان باللغة العربية: "هل هناك ما يمكنني أن أساعدك فيه؟". أجاب الصبي: "إني أشعر بألم في رأسي". ابتسمت ليليان وقالت: "عندي دواء سيساعدك. هل تريد أن أحضر لك الأسبرين؟". أومأ الصبي رأسه بالموافقة، فدعته ليدخل بينما أخذت تفتش بين متعلقاتها لتجد زجاجة الحبوب. ثم قالت حين وجدتها: "تفضل".

أخذ الصبي القرص وابتلعه، وظل لا يرغب في الانصراف. ثم أشار إلى فريدة وسأل: "هل أنت السيدة التي تبحث عن أطفال يحتاجون إلى مكان يعيشون فيه؟".

تعجبت ليليان لما قاله الصبي. ثم تذكرت أنها بالأمس بعد الظهيرة، ونتيجة للحماس الذي ملأ قلبها، أخبرت كاتباً للحسابات مصرياً أنها بدأت في افتتاح ملجأ، وأن فريدة هي أول ضيفة فيه فلابد أن ذلك الرجل قد نشر الخبر في المنطقة المجاورة.

بدت على الصبي علامات الحيرة وأخذ يقول: "لقد كنت فقط أريد أن أعرف، إذا ما كنت ستحصلين على المال الكافي لرعاية مئات الأطفال". ابتسمت ليليان لاستخدامه كلمة مئات. فقد كان معها طفلة واحدة فقط حتى الآن، وهذا كل ما تستطيع أن تقوم به. فأخبرت الصبي قائلةً: "أعلم أن الله سيسدد كل احتياجاتنا. وحتى الآن لا أعرف من أين ستأتي وجبتنا التالية، لكنني أعرف أن الله سوف يوفرها لنا".

اتسعت عينا الصبي وهو ينظر لليليان والرضيعة. ثم وضع يديه في جيبه وسحب شيئاً ما ووضعه في يد ليليان قبل أن يركض بسرعة خارجاً من الباب. نظرت ليليان لما وضعه في يدها، فوجدت أنه ترك لها سبعة قروش، وهذا يكفي لشراء الطعام ليومين قادمين. ملأت الدموع عينيها عندما أدركت أنها

تحمل في يدها معجزة حقيقية. فصبي مسلم فقير يعطيها وهي امرأة مسيحية من ماله الثمين ليساعدها في شراء الطعام للطفلة الصغيرة. قفزت إلى ذهنها الآية الكتابية القائلة: "**لأنه من ازدرى بيوم الأمور الصغيرة**"(زك ٤ :١٠)، والتي تعني أنه يجب ألا نحتقر البدايات الصغيرة. فعطية مقدارها سبعة قروش هي بداية صغيرة، لكنها تفتح الباب لإمكانيات ضخمة.

اشترت ليليان خبزاً وحبوباً ولبناً "للملجأ" بالنقود. وانتشر الخبر سريعاً عن مهمتها الجديدة. وبدأت مقادير صغيرة من المال والأكل تظهر على عتبة بيتها. فرحت ليليان وجيني بأن بعض الجيران بدأوا في تعضيد عملهما، برغم أن البعض الآخر لم يفعلوا. سمعت ليليان إشاعة تقول إنها تطعم الأطفال وتجعلهم أقوياء وأصحاء حتى تستطيع بيعهم كعبيد. لم تحاول ليليان أن تنشغل بهذا الأمر. فهي تعلم أن فكرة وجود امرأة أجنبية تساعد الأطفال والرضع أمر لم يسمع به الناس من قبل في أسيوط . لكن لديها الثقة أنها لو صبرت، فسيعرف جميع هؤلاء الناس دوافعها الحقيقية.

بعد مرور شهرين من سكنهما في البيت، أخبر رجل ليليان عن طفلين صغيرين في إحدى القرى المحيطة، مات والداهما، وأخذهما عمهما عنده بشكل مؤقت. لكنه يبحث لهما عن مكان

دائم ليعيشا فيه. كان القانون المصري يمنع من ليس من عائلة اليتيم أن يتبناه. لكن الرجل سأل ليليان إذا كانت تريد أن تأخذهما وتربيهما كأنهما طفلاها هي. أخذ قلب ليليان يطفر فرحاً. فبالتأكيد يوجد في الملجأ مكان لطفلين آخرين. وبهذا يصبح عدد الأطفال الذين تعتني بهم ثلاثة أطفال.

بعد ظهر ذلك اليوم استأجرت ليليان حماراً وركبته متجهةً للقرية. لم تقابلها صعوبة في تحديد مكان الأطفال، فكل فرد في القرية يعلم بأمر اليتيمين. أحدهما بنت عمرها ست سنوات والآخر ولد يبلغ أربع سنوات. احتضنتهما ليليان ووعدت أنها ستعتني بهما وتكون أماً لهما.

وبينما كان ثلاثتهم في طريق عودتهم للمنزل، تساءلت ليليان ماذا يمكن للطفلين أن ينادوها به. فلم يسبق لها التفكير في هذا الأمر لأن فريدة صغيرة ولا تستطيع الكلام. وعندما وصلت أسيوط، كانت قد قررت. فقالت للطفلين: "يمكنكما أن تدعواني ماما ليليان." هز الطفلان رأسيهما موافقين على كلامها.

انسجم الطفلان سريعاً مع الجو العائلي في المنزل. وكانا يحبان أن يلاعبا فريدة ويجعلاها تضحك. وفي شهر يوليو من عام ١٩١١ سمعت ليليان عن طفل آخر بلا مأوى، فرحبت به ليعيش في منزلها. كان اسمه حبيب، ويبلغ من العمر خمس

سنوات. وفي اليوم التالي لوصوله، أصيب حبيب بارتفاع شديد في درجة الحرارة مما جعل ليليان تركض مسرعة لتحضر طبيباً من المستشفى الأمريكية المشيخية. وبسرعة فحص الطبيب الطفل ثم هز رأسه عندما انتهى وقال لليليان: "لا أعرف كيف أقول لك هذا الأمر، لكن حبيب أصيب بالطاعون".

رددت ليليان بشكل مرتاب: "طاعون!. أحد أطفالي أصيب بالطاعون؟". قال الطبيب: "إنني آسف للغاية. لكن يجب أن آخذ الطفل لغرفة العزل في المستشفى. وسيتصل بك مفتش الصحة ليقول لك ما ينبغي عمله بعد ذلك. لكن في الوقت الحالي ينبغي عليك وعلى كل شخص يعيش هنا عدم مغادرة المنزل". قالت ليليان وهي تنحني لأسفل لتحتضن الطفل وتودعه: "حسناً يا دكتور". فهي مصرة أن تظهر له الحب مهما كانت حالته.

بعد مرور ساعة حضر اثنان من مفتشي الصحة أمام الباب. وباختصار لكن بشمول، طلبا إحضار كل شيء في المنزل مصنوع من القماش أو الخشب أو المعدن لحجرة المعيشة. ثم سحبا برميلاً كبيراً من عربة في الخارج ووضعاه على الأرض، وملآه بمطهر. وكل الأدوات التي تم جمعها في حجرة المعيشة غمساها في السائل المطهر، وبالطبع تلف الكثير منها. ثم أمرا أن يتم وضع فريدة والطفلين الآخرين في حجرة معزولة لمدة لا

تقل عن عشرة أيام. وأخبرا ليليان أن هناك احتمالاً أن يكون باقي الأطفال قد أصابهم المرض المميت أيضاً.

عندما ترك المفتشان المنزل، أخذت ليليان تنظر حولها في يأس، وتفكر كيف ساءت الأمور بهذه السرعة. فبالأمس رحبت هي وجيني بطفل جديد في المنزل، واليوم يؤخذ هذا الطفل للعزل في المستشفى ويتم غمر كل ممتلكاتها تقريباً في المطهر. ويمتليء المكان كله برائحة المطهر.

تدبرت ليليان وجيني كيفية قضاء باقي اليوم. لكن في الصباح التالي، فحصت ليليان فريدة والطفلين الآخرين، وصدمت لاكتشافها أنهم قد أصيبوا كذلك بقرح جلدية حمراء. جثت ليليان على ركبتيها وبدأت تصلي: "يارب، ماذا أفعل الآن؟".

في الحقيقة، لم يكن في مقدور ليليان سوى أن تفعل أمراً واحداً، وهو أن تحضر الطبيب مرة أخرى. أخذت ليليان وجيني تراقبان الطبيب بقلق بالغ وهو يفحص الأطفال. لكن التشخيص هذه المرة لم يكن ما توقعته ليليان. فقد كان الأطفال مصابين بالحصبة. وفي هذه المرة ركعت على ركبتيها وأخذت تصلي صلوات شكر لله . لكن الأمر لم ينتهِ بعد.

لم تستطع ليليان أن تنام في تلك الليلة. فالهواء يبدو ساخناً والحجرة ممتلئة. وفي النهاية، وحوالي الساعة الثانية صباحاً،

وجدت نفسها تلهث لتستنشق الهواء. صرخت ليليان: "جيني، أحتاج إليك". ولحسن الحظ أن نوم جيني خفيف. وفي دقيقة وضعت مقياس الحرارة في فم ليليان مع كمادات الماء البارد. ذهلت جيني وهي تقرأ قراءة الحرارة تحت ضوء المصباح وقالت: "واحد وأربعون درجة. إن حرارتكِ مرتفعة جداً. يجب أن أحضر الطبيب حالاً. اشربي قليلاً من الماء قبل أن أذهب". حاولت ليليان أن ترفع رأسها، لكنها لم تستطع. فوضعت لها جيني الماء في فمها بالملعقة. ثم ارتدت ملابسها بسرعة وخرجت من المنزل.

حدثت أمور كثيرة بعد ذلك، لكنها مبهمة بالنسبة لليليان. تذكرت الطبيب وهو يجس نبضها وأنهم سندوها ووضعوها فوق الكرسي. شارك الكثيرون ومنهم سيلا في حملها وهي فوق الكرسي للمستشفى. وآخر ما تذكره ليليان قبل أن تدخل في غيبوبة هو الحديث المستتر بين جيني والطبيب.

أصيبت ليليان بالطاعون وأصبحت حياتها لعدة أيام في خطر. لكن حمداً لله أنها بعد أيام بدأت تتحسن كما تحسنت حالة حبيب أيضاً. فقد تمكنا من البقاء على قيد الحياة بعد صراعهما مع الطاعون. بعد أسبوعين أصبحت ليليان في حالة جيدة تمكنها من العودة للمنزل. وعندما عادت للمنزل، أمرها الطبيب أن ترتاح

لمدة كافية كل يوم . أوضح لها أن المرض أرهق قلبها ولذلك عليها أن تأخذ أمر تعافيها بجدية شديدة. ولمدة يومين حاولت ليليان بقدر استطاعتها أن ترتاح، لكن الأمر بدا مستحيلاً. فحبيب عاد للمنزل أيضاً، لكنه مازال ضعيفاً ويحتاج مساعدة ليأكل. كما تحتاج فريدة والطفلان الآخران للرعاية.

أخبر الطبيب ليليان أنها ينبغي أن تأتي للمستشفى مرة في الأسبوع لعمل فحوصات طبية لها. وفي يوم الثلاثاء، عندما كانت تستعد للذهاب لإجراء الفحص الطبي الأول لها، فوجئت بوجود خمسة من الجيران في انتظارها ليصطحبوها للمستشفى. حاولت أن تثنيهم عن عزمهم، لكنهم أصروا. فذهب الجميع معاً إلى المستشفى. وهناك أخبرها الطبيب أنها لابد أن تجد طريقة لتستريح، فقلبها يحتاج للراحة. وأصر الأصدقاء أيضاً على ما قاله الطبيب وألحوا عليها قائلين: "لابد أن تأخذي أجازة في مكان ما لتستعيدي قواك".

شعرت ليليان بعناد يتزايد داخلها. فلديها أشياء مهمة جداً يجب إنجازها. فهي لا تحتمل أن يضيع الوقت . قال الطبيب بصوت لطيف: "يا آنسة ليليان أنت لا تفهمين خطورة الأمر. لن يمكنك أن تستمري في عملك إلا بعد أن تحصلي على الراحة الكافية. فقد أصيب قلبك بتوتر شديد خلال الأسابيع القليلة

الماضية. أنني أكره أن أكون صريحاً بهذا الشكل. لكن إذا لم تحصلي على راحة، فمن الممكن أن يتوقف قلبك عن العمل".

ذهلت ليليان. ويبدو أنه لم يعد لديها خيار آخر. لكن كيف سيمكنها احتمال أخذ أجازة ومن يساعد جيني في خدمة الأطفال؟ عندما عادت للمنزل، وضعت إحدى صديقاتها من الجيران شيئاً ما في يدها وقالت: "لقد جمعنا معاً مبلغاً من المال يكفي لأن تذهبي للراحة في الإسكندرية". ثم قالت صديقة أخرى: "سوف نضع معاً جدولاً للخدمة لنساعد جيني في رعاية الأطفال. وعند عودتك ستجدين أن كل شيء يسير كما تبتغين".

نظرت ليليان حولها وفاضت عيناها بالدموع وقالت: "إنه أمر رائع أن آتي من نصف الكرة الآخر لأجد أصدقاء رائعين مثلكم. أشكركم من أعماق قلبي". وفي المساء صار كل شيء معداً. وفي الصباح التالي، كانت ليليان ومعها الطفلة فريدة جالستين في أحد بيوت الضيافة بالإسكندرية. ومن خلال النافذة كانت ليليان تشاهد منظراً رائعاً للبحر المتوسط. لكن من المستحيل عليها أن تعطي لذهنها بعض الراحة. فربما هي بالجسد في الإسكندرية، لكنها تركت قلبها في أسيوط مع جيني والأطفال.

* * * * * * * * * *

الفصل الثامن

منزل عبر النيل

عندما عادت ليليان من الإسكندرية بعد أسبوعين، كانت كل الأمور على ما يرام حسب وعد جيرانها. فقد اعتنوا بالأطفال. والطعام متوفر في المخزن. شعرت ليليان أنها الآن أقوى وأقدر على القيام بواجباتها اليومية بحماس جديد. وبدأ معظم جيرانها المصريين يدركون أنها وجيني قد قررتا تأسيس ملجأ الأطفال بدافع إحساسهما بالحنان تجاه الأطفال. ولذلك صاروا يقدمون للملجأ عطايا صغيرة من الطعام أو المال حسب إمكانياتهم.

وكان فلاحون كثيرون ممن يعيشون في القرى المحيطة بأسيوط سعداء بمساعدة الملجأ، لكن ليس لديهم وسيلة لنقل مزروعاتهم للملجأ. أدركت ليليان سريعاً أن الأمر يستحق أن تستأجر حماراً وتذهب به للقرى. وبالطبع لم يكن صعباً على الفلاحين التعرف على فتاة أمريكية طولها ستة أقدام زرقاء العينين. كانوا يرونها وهي تحمل خضرواتهم وحبوبهم فوق الحمار. كانت ليليان تعلم أن الأمر يمثل تضحية كبيرة بالنسبة لبعضهم، حيث أنهم يعيشون في فقر شديد. لكنها كانت تتعجب

وهي ترى مقدار الفرح الذي يملؤهم وهم يقدمون عطاياهم. وبدأ الناس في أسيوط يلقبونها بمحبة "المرأة التي تركب الحمار".

أصبحت مساعدة الفلاحين أمراً حيوياً بالنسبة لليليان، وخاصة عندما بدأ عدد الأطفال يزداد. فخلال السنوات الثلاث التالية تضاعف العدد في الملجأ. وفي سنة ١٩١٤ أصبحتا ليليان وجيني ترعيان ثمانية أطفال داخل المنزل الضيق بطوابقه الثلاث. وقد شرعتا معاً في إنشاء مدرسة للأطفال. يبدأ اليوم بالصلاة وقراءة الكتاب المقدس كل صباح ثم تقدمان للأطفال دروساً في اللغتين الإنجليزية والعربية. اشترت ليليان أوراقاً وأقلاماً وبدأت في كتابة وتصوير كتب دراسية للأطفال. فقد أحبت أن تستخدم موهبتها الفنية مرة أخرى. وكانت غالباً ما تبتسم عندما تتذكر كم كانت على وشك أن تصبح رسامة في جريدة. لكن كم هي ممتنة الآن لأن الباب نحو هذه الوظيفة قد أغلق أمامها تماماً وأنها أطاعت دعوة الله لتأتي إلى مصر.

منذ أن أصبح المنزل يستخدم كمكان للنوم والأكل وكمدرسة أيضاً، صار ضيقاً وغير ملائم للمهام التي وجد لها. فبدأت ليليان تصلي من أجل الحصول على مكان أوسع وملجأ مناسب، حتى يمكن للأطفال أن يجروا ويلعبوا ويكون لهم حجرات خاصة للدراسة وحجرات أخرى للطعام .

في أغسطس عام ١٩١٤ بدأت الحرب العالمية الأولى. وشاركت مصر فيها بجوار بريطانيا العظمى. وفي نوفمبر عام ١٩١٤ أعلنت بريطانيا العظمى وصايتها على مصر ومسئوليتها عن حماية قناة السويس. لكن بالنسبة لليليان في أسيوط كانت الحياة تسير كالمعتاد.

في صباح يوم ثلاثاء في شهر يوليو من عام ١٩١٥ جاء أحد أصدقاء ليليان لزيارتها واسمه ملك ويعمل كاتباً في الحكومة. وكان ينقل لها آخر أنباء كل أحداث المدينة. وفي هذا اليوم بالذات كان يبدو عليه السعادة. قال : "آنسة ليليان، عندي أخبار رائعة لك. هل تذكرين نصف الفدان الواقع على الناحية الأخرى من نهر النيل، الأرض التي قلتِ أنها تصلح كمكان رائع لملجأ. إنها معروضة للبيع بخمسين جنيهاً فقط!".

وللحظات هجر الإيمان قلبها فصاحت متعجبة: "خمسون جنيهاً! إنها ثروة. من أين يمكنني الحصول على خمسين جنيهاً؟. هذا يعادل ٢٥٠ دولاراً أمريكياً". فجأة توقفت ليليان عن الكلام. فخمسون جنيهاً ربما تعد ثروة بالنسبة لها، لكن ألم يقل الكتاب المقدس إن الله يسدد كل احتياجاتنا؟. كيف تحصل على المال؟. بنفس الطريقة التي حصلت بها عليه من قبل؛ بالصلاة إلى الله لكي يوفر لها المبلغ.

قالت ليليان: "إنني آسفه يا ملك، لم أقصد أن أبدو مثبطة للعزيمة. إنها فرصة رائعة. فسيكون لدى الأطفال نوع المنزل الذي يستحقونه. سأفكر في الأمر". ثم قالت والإيمان يزداد في قلبها: "سأفكر في الأمر. اذهب وقل للمالك إنني سوف أشتري الأرض. سيكون معي النقود .."... ثم ترددت للحظة وأكملت: "سيتوفر معي المبلغ بعد أسبوع من الآن".

أسرع ملك لتوصيل الرسالة وصعدت ليليان لحجرتها، حيث ركعت لتصلي قائلة: "يارب، أظهر لي ما ينبغي أن أفعل. أحتاج إلى خمسين جنيهاً خلال أسبوع، ولدي الآن أقل من جنيه. يبدو الأمر مستحيلاً. لكنني أعلم أنه إذا كانت مشيئتك أن تصبح هذه الأرض ملكاً للأطفال، فستظهر لي كيف أحصل على المال".

وعندما وقفت، شعرت أن عليها أن تفعل شيئاً ما، أو تذهب لمكان ما. فاستأجرت حماراً وبدأت رحلتها. لم تعلم أين تتجه. كانت تصلي: "أظهر لي الطريق يارب، أظهر لي الطريق". لم يأخذها الحمار بعيداً حتى تذكرت أمراً قد حدث منذ أيام قليلة. فقد زار المنزل رجل غني من إحدى المدن التي تبعد ثلاث ساعات. كان يبدو عليه الانبهار برؤية كل الأطفال وهم يقرأون دروس اللغة الإنجليزية فتوقف ليتكلم مع ليليان، والتي شرحت له بدورها مهمتها. وبينما كانت تتكلم، سألها الرجل كثيراً من

الأسئلة ثم أعطاها بعض المال وأيضاً بطاقة بعنوانه وتليفونه. وقال لها قبل أن ينصرف: "اتصلي بي إذا كان هناك ما يمكن أن أقوم به لمساعدتك". أخذت هذه الكلمات تتردد الآن في أذني ليليان. ربما لم يزر هذا الرجل المنزل بالصدفة. فربما أرسله الله ليسدد لنا هذا الاحتياج بصفة خاصة. قررت ليليان أن تزور الرجل وتكتشف بنفسها. لكنها بعد أن قضت أربع سنوات في مصر، تعرف أن الأفضل أن تقوم بهذه الزيارة بالطريقة الصحيحة. وهذا يعني أن يتم تقديمها لرجل الأعمال بطريقة رسمية عن طريق رجل آخر يحترمه.

بينما الحمار يسير، أخذت ليليان تفكر فيمن يمكنه أن يقدمها لرجل الأعمال. استقر رأيها على مدير المديرية في أسيوط (محافظها). فقد تقابلت معه مقابلة سريعة، لكنها عرفت أنه مهتم بالعمل الذي تقوم به في الملجأ. سيكون أمراً رائعاً أن يقوم بترتيب اجتماع لها مع رجل الأعمال. شدت ليليان لجام الحمار ليسير في طريق جانبي. فهذا وقت الذهاب لمكتب المدير (المحافظ). كان المبنى الذي يقيم فيه المحافظ كبيراً ومهيباً من الداخل كما هو من الخارج أيضاً. دخلت ليليان مكتبه حيث الأثاث الفاخر، وجلست على أحد المقاعد الكبيرة الفخمة التي أمام مكتب المحافظ حيث يجلس. وبعد تبادل التحيات لبعض

الدقائق، أخذت ليليان تخبر المحافظ عن الملجأ ونصف الفدان الذي يقع عبر النيل. وبينما كانت تتكلم، ارتفع حاجبا المحافظ . فقد كان معجباً بكل ما تقوم به ليليان.

وصلت ليليان أخيراً للأمر الذي أتت من أجله فقالت: "ليس عندي أية أموال، بينما أحتاج إلى خمسين جنيهاً لشراء الأرض. إلا أن رجل أعمال من مدينة قريبة أخبرني أن أتصل به إذا واجهتني أية احتياجات مالية. فلذلك أرغب في زيارته والحديث معه عن هذا الاحتياج، وسأكون ممتنة أكثر لمساعدتك لي في هذا الأمر. هل يمكنك تدبير مقابلة لي مع هذا الرجل؟".

اهتز الرجل على كرسيه عدة مرات ثم قال: "من دواعي سروري أن أفعل هذا. هل يناسبك غداً الحادية عشر صباحاً لإجراء هذه المقابلة ؟". أومأت بالإيجاب. فقال:"حسناً جداً. سأقوم بالاتصال به وبعمل الترتيبات اللازمة. هل لديك وسيلة مواصلات للمدينة؟". أجابت ليليان وهي ممتلئة بالسعادة: "نعم عندي حمار". تجهم وجه المحافظ وهو يتساءل بارتياب: "حمار؟ شابة أمريكية تقود حماراً!. لا أستطيع أن أصدق هذا الأمر".

أجابت ليليان ببساطة: "إنها أفضل طريقة لي للانتقال من مكان لآخر. إنني أقود الحمار لقرى مجاورة عدة مرات في الأسبوع لأجمع المنتجات الزراعية من الفلاحين الذين يتبرعون

بها للملجأ". سأل المحافظ: "ولم يحدث أن حاول أحدهم مهاجمتك أو سرقتك ؟" قالت ليليان: "لا. لم يحدث هذا أبداً. فالله يحميني ويحفظني سالمة". قال المدير: "نعم كما تقولين، لكن الحمار هو علامة على السخرية والاحتقار". أومأت ليليان برأسها وقالت: "لكن في القرى الناس لا يهتمون بهذه العلامات. إنهم يلقبونني بالمرأة التي تركب الحمار. ولا أعتقد أنهم يقصدون إهانتي بهذا اللقب". قال المحافظ: "حسناً، سأقوم بتحديد ميعاد المقابلة في الغد. يجب أن تذهبي مبكراً في الصباح على الحمار حتى تصلي في الميعاد. لكنني أقترح عليك أن تستأجري بعض قائدي الحمير ليرافقوك في هذه الرحلة. حيث أنه في مثل هذا الوقت من العام يكون الطريق خطراً". قالت ليليان وهي تقف لتغادر مكتب المحافظ: "شكراً لك". وتبعاً للتقاليد المصرية، أصبحت زيارة رجل الأعمال الآن رسمية ومعتمدة.

وفي طريق العودة للملجأ، رفعت صلاة شكر لله لأنه أعطاها نعمة لدى المحافظ. وقبل أن تصل للملجأ توقفت عند أحد الإسطبلات واتفقت مع اثنين من قائدي الحمير ليصطحباها في رحلتها القادمة. وفي صباح اليوم التالي باكراً جداً كان الرجلان في انتظار ليليان عندما ظهرت خارجة من المنزل، وقد بدأ ضوء النهار يظهر طارداً الظلام.

كان هذا هو وقت موسم الفيضان، حيث يفيض ماء النيل على ضفتي النهر، محولاً الكثير من الأراضي في القرى المحيطة إلى مستنقعات وبحيرات تتشابك معاً بقنوات ري مغمورة بالماء. وفيما هم يجتازون القرى كان على الرجلين أن يسلكا طرقاً طويلة تدور حول الأراضي المغمورة بالمياه. وفي نحو الثامنة صباحاً بدأت الشمس في إرسال أشعتها الساخنة فوقهم. وأدركت ليليان أن هذه الطرق المنحنية تستغرق وقتاً طويلاً. فبدأت تشعر بالحنق لأن هذا سيؤخرها عن ميعادها مع رجل الأعمال.

وعندما جاءوا عند بحيرة كبيرة، توقف الرجلان ونزلا من على حماريهما. ثم نظرا للماء ثم أحدهما للآخر وأخذا يتكلمان معاً بصوت منخفض. استدار أحدهما نحو ليليان وقال: "منسوب الماء مرتفع جداً هذا العام يا سيدتي. فلذلك يجب علينا أن نجتاز عبر الصحراء لنتمكن من الدوران حول هذه المياه".

أطلقت ليليان تنهداً عميقاً وقالت: "لكن لا يمكننا أن نفعل هذا، فنحن قد تأخرنا. ولن نتمكن من اللحاق بالميعاد إذا سلكنا هذا الطريق الطويل". ولتؤكد لهم ما تقوله، قفزت ليليان من على حمارها، وعقدت فستانها الطويل، وخاضت داخل الماء.

فأخذ الرجلان يناديان عليها ويقولان: "آنسة ليليان عودي. إن هذا خطر جداً". أجابتهما: "أنظرا، الماء ليس عميقاً. يمكننا أن

نعبر". فأجاباها: "عودي. فهذا خطر". تجاهلت ليليان كلامهما، وخطت خطوة أعمق داخل الماء الموحل. لكن عندما وضعت رجلها لأسفل اختفى قاع البحيرة فغاصت في الماء حتى غطى الماء رأسها. وبعد لحظات رفعت رأسها خارج الماء لتتنفس، وقد غطاها الوحل من قمة رأسها حتى أخمص قدميها. فأسرع الرجلان لإنقاذها. قالا وهما يقودانها لأرض ناشفه: "لقد مشيتي في إحدى قنوات الري". غطاها الخجل فلم يمكنها أن تنظر للرجلين. فبسبب تلهفها للوصول في الميعاد، تصرفت بشكل مندفع متجاهلة تحذيرات مرشديها، وأصبحت على وشك الغرق. وأسوأ ما في الأمر، هو تلطخ ملابسها بالطين: كان عليها أن تجد مكاناً لتستبدل ملابسها. فقد أحضرت معها ملابس احتياطية فوق الحمار. وهذا يستغرق وقتاً أطول مما جعلها تتضجر. واصلوا المسير حتى وصلوا إلى منزل قريب حيث طلبت ليليان أن تبدل ملابسها. وأخيراً، وبعد أن ارتدت ليليان ملابس نظيفة وجافة، ذهبوا مرة أخرى في طريقهم. وبينما كانوا في طريقهم داخل الصحراء مبتعدين عن المناطق الممتلئة بالفيضان، شعرت ليليان باليأس من أن تصل في الميعاد. وعندما فقدت الأمل، قرر سائقا الحمير أن ينخسا الحيوانات حتى تركض. فأمسكت ليليان لجام الحمار بإحكام، بينما الحمار يجري مسرعاً. وبدون أن

تدرك كانوا قد داروا حول مناطق الفيضان واقتربوا من المدينة التي يسكن فيها رجل الأعمال.

كانت الساعة الحادية عشر تماماً. سحبت ليليان حمارها وأوقفته خارج بيت رجل الأعمال. وبرغم كل ما حدث، تمكنوا من الوصول في الميعاد. حياها الرجل بحرارة ودعاها لتدخل. ودخلت معه سريعاً في حديث طويل لتخبره عن قطعة الأرض التى عبر النيل وأنها تريد أن تبني ملجأ جديداً كبيراً. لمعت عينا الرجل أثناء حديث ليليان، وفي نهاية المقابلة، أعطاها الخمسين جنيهاً التي تحتاج إليها لشراء الأرض.

وضعت ليليان النقود داخل حقيبة يدها وشكرت رجل الأعمال. ففي ذهنها أصبح الملجأ وكأنه قد بني . لكن كان عليها أن تعرف، أن كثيراً من التحديات تنتظرها.

* * * * * * * * * *

الفصل التاسع

قوالب الطوب

عندما تمت صفقة شراء قطعة الأرض، أصبح كل ما تملكه ليليان بعض القروش القليلة وهي بداية صغيرة لتسديد مصاريف البناء على الأرض الجديدة. ذكرت ليليان نفسها بما قاله الكتاب المقدس عن عدم احتقار البدايات الصغيرة. ولذلك بدأت تفكر فيما يمكن أن تفعله بهذه القروش القليلة. وبسرعة جاءت الإجابة. فيمكنها أن تشتري ستة من النماذج الخشبية لقوالب الطوب، وبعدها تبدأ هي والأطفال في صناعة قوالب الطوب.

كان يوماً حاراً من أيام شهر سبتمبر حين بدأت ليليان والأطفال جاهدين في صناعة قوالب الطوب. فكل نموذج مقسم إلى أقسام، تنتج عشرين قالباً بعد ملئها بالطين. والطين الذي يصنع به القوالب يتم عمله بخلط التراب الناتج من حفر الأرض الجديدة مع الماء الذي يحضرونه من النيل القريب من الأرض. ويضاف لهذا الطين سماد وتبن لضمان جفاف الطوب ليصبح صلباً وقوياً. عندما أصبحت كل المكونات جاهزة، صعد الأطفال فوق الخليط وبدأوا في عجنه بأقدامهم. في البداية لم يكن من السهل الحصول على القوام المناسب للطين، لكن في النهاية

تعلموا المقادير الصحيحة للمياه التي تضاف ليتم التأكد من أن الطين سوف يجف ليصبح قوالب صلبة وقوية.

وبمجرد أن يتم خلط الطين، يجتمع الكل ويأخذونه بأيديهم ثم يضعونه في النماذج الخشبية. تترك النماذج لتجف لعدة أيام تحت حرارة الشمس، والتي تصل أحياناً إلى ٥٥ درجة مئوية.

عندما حصلت ليليان على بعض النقود، اشترت قوالب إضافية، وبسرعة أصبح هناك مئات القوالب تحت أشعة الشمس لتجف. أخذت ليليان تعاين قوالب الطوب بشعور غامر من السعادة. فالطريقة التي يصنع بها الطوب في أيام موسى وفي أيام المسيح، هي نفسها التي يصنع بها الطوب للملجأ الجديد.

وبينما كان الطوب يجف تحت أشعة الشمس، أدركت ليليان أن هذا هو الوقت المناسب لرسم خرائط للمبنى الأول. لكن لم يكن في مقدورها أن تستأجر مهندساً معمارياً. وحتى لو كان هذا ممكناً، كان لديها انطباع بأنه لن يقدر أحد أن يحقق ما في فكرها. ففي ذهنها تصميم معين عن شكل الملجأ. فبدأت في تحويل الصورة التي في ذهنها إلى الورق. كانت عملية رسم خرائط مضبوطة تتطلب أمسيات طويلة. لكن ببطء وصبر كل ليلة وضعت رسومات المبنى على الورق. ستبني حجرات النوم حول الملعب، حيث يمكن للأطفال أن يلعبوا وحيث يمكن أن

تجلس في المساء. لابد أن يكون سمك حوائط المبنى نصف متر على الأقل كما هي العادة في مصر، حتى تحميهم من قيظ الحر الشديد. وصممت كل حجرة في المبنى لتتسع لأربع أسرة.

بعد أسبوعين أصبحت الدفعة الأولى من قوالب الطوب جاهزة لإخراجها من النماذج الخشبية. وتحول لون القوالب من البني الغامق إلى اللون الرمادي عندما جفت. واستأجرت عامل بناء ليبدأ في بناء الحائط الأول لمبنى النوم الخاص بالبنات. كان اسم الرجل مشرقي، وكان جاهزاً للبدء بمجرد أن يكتمل العدد الكافي من الطوب. أطلعته على الطوب الذي صنعه الأطفال. فأخرج الطوب من النماذج الخشبية وبدأ في فحصه. وفي النهاية ابتسم وهو يقول لها: "من يصدق أن هؤلاء الأطفال لم يسبق لهم صناعة قوالب طوب من قبل؟. إن هذه القوالب جيدة جداً".

سألته ليليان قائلة: "رائع، هل يمكنك أن تبدأ غداً؟. فسأبدأ في تحديد الأساسات ثم يحفرها الأطفال. وبعد ذلك يمكنك البناء مباشرة". هز مشرقي رأسه وقال: "إن هذه قوالب جيدة لبناء الحوائط، لكن الأساسات تحتاج نوعاً خاصاً من القوالب ذات متانة شديدة. ولا يمكن صناعتها يدوياً، فلابد أن يتم شراؤها من المصنع. والكمية التي تحتاجينها تكلفك ثلاثة جنيهات".

فـوجئت ليليان بهذا الأمر. فثلاثة جنيهات مبلغ كبير. وبرغم

ذلك وجدت نفسها تقول: "سأطلبها اليوم يا مشرقي". وبمجرد أن غادر مشرقي المكان، اتجهت ليليان إلى أحد أركان الأرض الجديدة وركعت على ركبتيها وأخذت تصلي: "يارب، أنت تعلم أننا نحتاج إلى قوالب طوب لعمل أساسات متينة. أرجوك أظهر لي كيف يمكنني أن أحصل على ثمنها".

استقر سلام عميق في قلب ليليان وهي في طريقها إلى أسيوط لطلب قوالب الطوب من مصنع الطوب. لم يكن معها مال يكفي ثمناً للطوب، لكنها على يقين أن المال سوف يأتي.

باكراً في صباح اليوم التالي، خرجت ليليان في دورتها المعتادة حول قرى الفلاحين. وقد أصبح هذا الأمر يتم بطريقة منتظمة حتى أن كل قرية تعلم متى تأتي ليليان إليها. وكان يجتمع أهالي القرية لسماع أخبار الملجأ وأي أحداث أخرى تتم في أسيوط ثم يعطون ليليان مساهماتهم من المنتجات الزراعية. وفي هذا اليوم بصفة خاصة كان على ليليان أن تسافر إلى إحدى عشرة قرية، وكانت الأخيرة هي قرية كوم أسفحت. لم يكن موسم الفيضان قد انتهى بعد. وعندما وصلت ليليان وجدت أن القرية محاطة بالمياه المختلطة بالطين بمساحة تصل إلى ميلين.

نزلت عن الحمار وهي ممتلئة بالتعب، ونظرت عبر البقعة الطينية، وتساءلت هل الأمر يستحق أن تكابد مشقة العناء

للوصول لكوم أسفحت. فمع وجود هذه الكمية من المياه، سوف يتطلب الأمر بذل مجهود كبير للذهاب لواحدة من أفقر القرى. لكن عندما فكرت ليليان في الأصدقاء الذين تقابلت معهم في زيارتها السابقة وفي فرصة إخبارهم عن بدء العمل في المبنى الجديد للملجأ، أدركت أن عليها أن تذهب إلى هناك. فأخذت طريقها نحو قرية أخرى تقع على أرض مرتفعة وهناك استأجرت قارباً ورجلاً ليقوده لتذهب إلى كوم أسفحت.

حين وصلت كوفئت بالابتسامات العديدة على وجوه الفلاحين. فجاء إليها شيخ القرية قائلاً: "إنه شيء مدهش أن نراك. ففي أوقات الفيضانات لا يأتي إلينا كثير من الزوار حيث يكون النيل مرتفعاً. لذلك نحن سعداء بمجيئك. في الحقيقة، كنا نتكلم عنك لعدة أيام، وقد جمعنا خمسة جنيهات لنساعدك في بناء ملجأك". شعرت ليليان بعينيها تفيضان بالدموع. فلم تكن أبداً تتوقع هذا. لم يكن لديها أدنى فكرة كيف أمكن لهؤلاء الناس الفقراء جمع خمسة جنيهات، لكنها قدرت رغبتهم في المساعدة تقديراً كبيراً، كما قدرت ما فعله بقية أصدقائها المسلمين أيضاً. والآن أصبحت تملك المال الكافي لشراء الطوب اللازم بالإضافة إلى جنيهين آخرين لشراء معدات أخرى.

مكثت ليليان معهم بعض الوقت ثم تركتهم لتأخذ القارب لتعود

به من حيث أتت. فقد كان عليها العودة قبل حلول الظلام. وقبل أن تصعد للقارب وضعت ليليان الجنيهات الخمسة في محفظتها القطنية وربطتها حول رسغها. أخذ القارب طريقه عبر مياه الفيضان، فهبت رياح شديدة وبدا القارب ضعيفاً أمام هذه الرياح. أخذ قائد القارب يجدف بقوة لكنه لم ينجح في دفع القارب للأمام . وبدأت الأمواج في خبط القارب.

لاحظت ليليان أن الشمس أخذت في المغيب وفي خلال دقائق بدأ الظلام يحل، بينما استمرت التيارات والدوامات تحيط بالقارب. وأثناء اهتزازه، كان القمر يظهر خلف السحب. شهقت ليليان فلقد ضربت موجة عنيفة القارب. فصرخت وهي تتعلق بحافة القارب قائلة: " تماسك ".

اهتز القارب بشدة بسبب الموج، ودخل بعض الماء للقارب، لكنه لم يغرق. بعد أن عبرت الموجة، فكت ليليان المحفظة القطنية وربطتها مرة أخرى بقوة أكثر حول رسغها. وقالت لنفسها: "إذا غرقت، فستظل المحفظة مربوطة في جسدي، وسيمكنهم شراء الطوب بالنقود". وبسبب الصدمة غاب عن فكرها أنه لا يوجد غيرها من يمكنه تولي مسئولية تربية ثماني أطفال وبناء الملجأ.

بعـد أن وضعت النقود في أمان. أخذت إناءً معدنياً كان في

مؤخرة القارب وبدأت في تفريغ الماء من القارب. وبينما كانت تفعل هذا، ظلت عيناها تراقبان أية أمواج أخرى ويدها الأخرى تمسك بحافة القارب. استمرت الرياح. وكان الماء الممتلىء بالطين قد غطي ليليان وقائد القارب. وظل الموج يخبط القارب موجة بعد موجة حتى تأكدت ليليان أنه لن يصمد كثيراً. تصدعت بعض ألواح القارب، فبدأ الماء يتسرب داخل القارب. وفي ضوء القمر أمكنها أن تلاحظ أن الماء يزداد في مؤخرة القارب، وبالتالي لن تقدر أن تفرغه من القارب بنفس سرعة تدفقه إلى الداخل. بدأ قلبها يخفق عندما أدركت أن القارب على وشك الغرق. وأخذت تصرخ وسط الريح قائلة: يارب أعنا". وفي نفس الوقت خلع قائد القارب قميصه وسد به الثقب الموجود في القارب. فتوقف تدفق الماء. كانت ليليان تعلم أن هذا حل مؤقت. فأخذت تبكي وهي تشعر أن النهاية اقتربت ثم بدأت تصلي : "يارب، إنني أحتاج إلى عونك، إلى مساعدتك". وفجأة شعرت بشيء صغير يصطدم بأسفل القارب. توقفت ليليان عن النحيب وأخذت تنظر خارج القارب. فلم ترَ شيئاً، لكنها كانت متأكدة أن شيئاً ما تحت القارب. ثم شعرت بصدمة أخرى، فأخرجت يدها ووضعتها في الماء، فلمست شيئاً صلباً مستديراً، وكأنه يد مكنسة خشبية. ملأ الحماس قلبها وهي تحاول تخيل

الشيء الذي يقع أسفل القارب. ثم فجأة استطاعت معرفته. فقد كان الفلاحون يضعوا أكواماً من أعواد الذرة الجافة على أسطح أكواخهم وذلك لجعلها أكثر أماناً. وفي بعض الأحيان كان ارتفاع هذه الأكوام ضعف ارتفاع الأكواخ نفسها. فبالتأكيد اصطدم القارب بكومة منها طارت بفعل الريح. صرخت ليليان وقالت لقائد القارب: " تعالى في هذا الإتجاه". استطاعت أن ترى أعواد الذرة تظهر فوق الماء. وفي هذا الوقت كان القارب قد بدأ في الغرق بالكامل. صرخ قائد القارب: "أخرجي". ولم تتردد لحظة. وقفت وخرجت لتقف فوق جزيرة أعواد الذرة. وبعد أن خرجا كلاهما، غرق القارب تماماً ولم يستطيعا رؤيته بالمرة.

صلت ليليان قائلة: "شكراً لك يارب، لأنك أنقذتنا من الغرق، لكننا لا نستطيع أن نبقى هنا طويلاً بينما النهر يزداد في الارتفاع. أرجوك أن تساعدنا لنجد طريقة للوصول للشاطىء".

بدأت الأمطار تهطل فوق ليليان وقائد السفينة وهما فوق جزيرة أعواد الذرة. طمأنت ليليان نفسها أن الجزيرة متينة. لكن إذا استمر الماء في الارتفاع، لن يهم مدى متانة أو صلابة الجزيرة. فسوف يجرفها الماء على أية حال.

وفي خلال دقائق سمعت ليليان صوتاً آخر، كان صوت مرور قارب. فبدأت تصرخ: "النجدة! نحن هنا". لكن لم يسمع

أحد صراخها وعبر دون أن يتوقف. ضاعفت ليليان من صلواتها، آملة أن يكون هناك طريقة لهم عبر المياه. ومما جعلها تشعر بالراحة، هو مرور قارب آخر بعد دقائق قليلة. وهذه المرة سمع صراخها، ووصل القارب لهما.

بعد ساعة، أمكنها أن تصل إلى حمارها. وكان الوقت منتصف الليل تقريباً، لذلك قررت أن تنام في أحد الأكواخ القريبة. وفي الصباح الباكر تشد الرحال إلى أسيوط. فقد كانت في غاية التلهف للعودة حتى تدفع ثمن قوالب الطوب ليتمكن مشرقي من البدء في العمل.

* * * * * * * * * *

الفصل العاشر

خسائر ومكاسب

بعد عدة أسابيع كان العمل في المبنى الجديد للملجأ يتم على أكمل وجه. وفي أحد الأيام، عندما عادت ليليان مع الأولاد من الأرض الجديدة بعد أن انتهوا من صناعة بعض قوالب الطوب، لاحظت أن هناك شاباً صغيراً يدور حول المنزل. شعرت ليليان أنها تعرف الرجل، لكنها لم تستطع تذكر متى قابلته وأين؟. أخذت تراقبه وهي تعد الغذاء. كان من الواضح أنه يتعمد مراقبة طفلة معينة وهي تلعب وهذه الطفلة هي فريدة. ثم وبصرخة تنبه، تذكرت ليليان من هو هذا الشاب. إنه نفس الشاب الذي جاء لمقر خدمة كرازة القس برلسفورد ليطلب المساعدة لأم فريدة عندما كانت فريدة رضيعة .

أسرعت ليليان للخارج ثم حملت فريدة ذات الأربعة أعوام بين ذراعيها، وعندئذ فقط اقترب الشاب منها. وتحسس جيبه مخرجاً منه ورقة عليها طابع رسمي. استطاعت ليليان بالكاد أن تنظر إليها، فهي تعلم ما هي هذه الورقة. كانت متأكدة أن هذا الشاب هو والد فريدة وأنه يريد أن يستعيد ابنته.

امتلأت ليليان بمشاعر الظلم والرجل يأخذ من بين ذراعيها الطفلة التي نشأتها ويمضي بها بعيداً. صرخت فريدة : "ماما، ماما، لا تدعيه يأخذني". لكن ليليان لم تقدر أن تفعل شيئاً. فهي لا تملك أية أوراق تربط الطفلة بها. كل ما عندها أربع سنوات من الرعاية لها. بكت ليليان على فريدة طوال هذا الليل ولعدة ليالٍ أخرى. لم تكن تفكر أن هناك ما يمكن أن يكسر قلبها أكثر من هذا، إلا عندما سمعت أن فريدة ماتت. لم تستطع ليليان أن تستوعب ما حدث. فقد كانت الطفلة الصغيرة في صحة ممتازة عندما أخذها أبوها. كل ما استطاعت ليليان أن تفعله هو أن تطلب من الله أن يشفي الألم الذي ملأ قلبها ويساعدها على الاستمرار في عملها مع باقي الأطفال.

وبحلول عيد الميلاد عام ١٩١٦ اكتمل بناء المبنى الجديد في الملجأ. كان الأولاد يخلطون الطين لصناعة قوالب الطوب الذي يحتاجه المبنى، بينما تساعد البنات مشرقي ومن معه بإمدادهم بما يحتاجون إليه لم تجد ليليان كلمات يمكنها وصف سعادتها وهي تجمع مع جني متعلقاتهما لعبور النيل للملجأ الجديد.

جاء انتقالهم في الوقت المناسب. فقد بدأت الحرب تؤثر بشدة على الناس في مصر. فبريطانيا التي تحكم مصر آنذاك، أخذت تطلب مجندين جداً. وطلبت من كل مسئول في القرى، ومن

كل محافظ، أن يوفر لها أعداداً من المجندين. وبدأت الشائعات عن خطف الفلاحين من حقولهم أو إجبارهم على ترك بيوتهم وأخذهم بالقوة ليتطوعوا للخدمة في الجيش البريطاني.

وكما كان الأمر مأساوياً للرجال، كان كذلك بالنسبة للزوجات والأطفال وقد أصبحوا بلا عائل، يتعرضون للمعاناة الشديدة. فبدون الأزواج والآباء ليس لديهن وسيلة لحرث الحقول لإنتاج الطعام. فأصبح كثير من العائلات في يأس شديد، وكل التماساتهم غير مسموعة لدى الحكومة البريطانية.

نتيجة لهذا الموقف ارتفع عدد الأيتام في الملجأ بشكل مطرد. وفي صباح أحد أيام شهر فبراير ١٩١٧ جاءت إحدى الفتيات تجري نحو ليليان في حجرة تفصيل ملابس الأطفال وقالت: "ماما، هناك امرأة عند البوابة ومعها أطفالها تطلب أن يسمح لها ولأطفالها بالبقاء هنا". وضعت ليليان السروال الذي تحيكه جانباً وقالت: "أنا قادمة". لم يكن سهلاً عليها أن تخبر المرأة أنه يمكن لأطفالها أن يجدوا مكاناً في الملجأ لكن على المرأة أن تجد مكاناً آخر لتعيش فيه. عندما وصلت ليليان للبوابة، وجدت ما يستحق الشفقة الشديدة. وجدت شابة صغيرة تلبس خرقاً بالية ومعها ثلاثة أولاد وبنت صغيرة، وجميعهم قد برزت عظام وجوههم ونظراتهم شاحبة ومتعلقون بأمهم. قالت ليليان:"أنا ليليان تراشر.

هل هناك ما يمكنني أن أقوم به لك؟".

رفعت المرأة وجهها ونظرت لليليان وقالت: "زوجي توفي. وأخبرني أهل قريتي أن أحضر الأطفال لبيت الله . لذلك جئت بهم إلى هنا. أرجو أن تدعيهم يدخلون وأنا معهم". هزت ليليان رأسها وقالت بكل ما استطاعت من لطف: " نحن نقبل الأطفال فقط. لابد أن تعودي لقريتك". تساءلت الأرملة الصغيرة قائلة: "لكن ما معنى هذا ؟. إنني شبه فاقدة للبصر، وليس عندي عائلة لتساعدني. وليس عندي أي شيء أو أي شخص سوى أطفالي". انكسر قلب ليليان وهي تنظر لهذه الأسرة التعيسة. فلم تقدر أن تصر على مغادرة المرأة للمكان. فسألتها ليليان قائلة: "هل أنت مستعدة أن تعملي في المكان؟". ملأت الدموع عيني الأرملة وهي تقول: "يمكنني أن أفعل أي شيء لأبقى بجوار أطفالي. يمكنني أن أطهو وأنظف وأعتني بالأطفال الصغار".

قالت ليليان وهي تلف يدها حول كتفي المرأة النحيفة: "حسناً جداً، سوف نجد لكِ مكاناً هنا". وكما قالت المرأة، فعلت كل ما يمكنها لتساعد في أعمال الملجأ المتنوعة. وبسرعة أصبح لا غنى عنها في المطبخ. انضم أطفالها إلى باقي الأطفال، وكان يمكنهم رؤية أمهم وقت الوجبات فقط .

وبرغم أن ليليان كانت تمانع في أن تعطي الأرملة مكاناً في

الملجأ، إلا أنها سريعاً ما اكتشفت مقدار ما يمكن أن تضيفه يد عاملة إضافية من مساعدة في المكان. وعندما طلبت أرملة أخرى البقاء في الملجأ، كانت ليليان مستعدة أن توافق وبسرعة. وبعد وقت قليل بدأت ليليان في رسم خرائط مبنى نوم للأرامل.

وفي يوم رأس السنة لعام ١٩١٨ أحصت ليليان عدد الموجودين بالملجأ فكانوا ثمانين يتيماً وثماني أرامل تحت رعايتها. وبرغم صعوبة الأوضاع بسبب ظروف الحرب، إلا أنه كان هناك كل يوم ما يكفي من الطعام والملابس للجميع.

والآن بعد أن أصبحت الأمور في الملجأ تسير على أكمل وجه، قررت ليليان أن هذا هو الوقت المناسب لكتابة السياسة الرسمية لإدارة المكان. صلت من أجل هذا الأمر لمدة طويلة قبل أن تخرج بإحدى عشرة نقطة تساعد في إدارة الملجأ :-

١. ملجأ أسيوط هو عمل إيمان يتم تعضيده عن طريق عطايا مجانية تمنح من آخرين.
٢. كل المقيمين بالملجأ سواء الأيتام أو الأرامل يتم مساعدتهم بدون مقابل.
٣. لا يوجد عدد محدد لمن يمكن للملجأ قبولهم.
٤. الأقرباء لابد أن يوقعوا على أوراق تعطينا الحق في رعاية الأطفال حتى سن الثامنة عشر.

٥. يمكن للأقارب زيارة الأطفال في أي وقت كما يمكن للأطفال زيارة أقاربهم أثناء الأجازات إذا أرادوا .

٦. الملجأ لا يوفر الطعام والملابس فقط للأطفال بل يوفر لهم أيضاً التعليم والتربية الدينية والتهذيب ويعلمهم حرفة إذا لزم الأمر.

٧. الأيتام الذين لديهم أقارب يقدرون على تدعيمهم لا يتم قبولهم حيث يمكن إلحاقهم بالمدارس الداخلية.

٨. كل طفل لابد أن يعمل في الملجأ لمدة عام بدون مقابل، إما بعد انتهاء دراسته أو في حالة مرور الملجأ بضائقة معينة، حيث يتوقف لمدة عام عن الدراسة للعمل ثم يستكمل بعد ذلك دراسته.

٩. الفتيات الكفيفات يتم قبولهن وتعليمهن القراءة بطريقة برايل (في مصر أماكن للأولاد العميان).

١٠. بسبب العادات المصرية وصعوبة زواج الفتاة التي تعمل خادمة، لذلك فإن فتيات الملجأ يمكثن فيه حتى يتزوجن. أما غير الراغبات في الزواج فيمكن أن يبقين للعمل كمدرسات ومساعدات.

١١. الأرامل اللواتي بلا سند أو تعضيد يمكن قبولهن في الملجأ مع أطفالهن. ويمكنهن المساعدة في تربية

الأطفال الصغار وفي غسل الملابس وطهي الطعام والإصلاحات المختلفة حسب استطاعة كل منهن وحسب احتياج الملجأ.

كان كل الأطفال يساعدون في أعمال الملجأ. فتعمل البنات الكبيرات في المطبخ يطبخن الطعام ويغسلن الأطباق ويساعدن ليليان في حياكة الملابس وفي رعاية الأطفال الرضع. أما الأولاد فيعملون في الخارج في الاهتمام بالفناء وفي صناعة الكراسي الخشبية وفي عمل المصنوعات الجلدية التي تباع في السوق ليتم بثمنها تدعيم احتياجات الملجأ.

وفي هذا الوقت سمعت كارزة أمريكية تدعى سارة سميث عن أعمال ليليان وجاءت لتستكشف بنفسها. كانت معجبة جداً بما رأته فقررت أن تبقى وتعمل مع ليليان. وأصبحت بمثابة أم بالنسبة للأطفال.

وبمرور الشهور انضم عدد أكبر من الأطفال والأرامل. رحبت ليليان بهم جميعاً. ومع العدد المتزايد الذي لم يشهده الملجأ من قبل ازدادت أيضاً إمكانيات الملجأ، ولكن أصبح هناك احتياج شديد لحجرات نوم أكثر ولقاعات طعام.

وبمرور الوقت برعت البنات اليافعات في رعاية الأطفال الصغار، وأصبحن لا يحتجن إلى إشراف كثير. كانت ليليان

تعطي كل فتاة مسئولية رعاية ستة أطفال صغار خلال اليوم، وكن بمثابة أمهات صغيرات لهم. كانت ليليان سعيدة بهذه الترتيبات لأن هذا يعني أن كل طفل صغير أصبح له من يستند عليه ويعرف شخصيته وما يحب وما لا يحب. وكان هذا يغمر المكان بجو العائلة الدافيء ، فلم يعد الملجأ معهداً تعليمياً فقط .

كان الأطباء في المستشفى المشيخية بأسيوط يقومون بكل ما يستطيعون للمساعدة. فاحتفظوا بحجرة خاصة للأطفال الأيتام تسمح بالعناية بستة أطفال يعانون من المرض أو سوء التغذية. ولم تكن المستشفى تطلب من ليليان أي مقابل لهذه الخدمات. وكانت ليليان تزور الأطفال في المستشفى بصورة منتظمة، وعندما يتعافى أحد الأطفال تعود به إلى الملجأ وتضع مكانه طفلاً مريضاً آخر ليعتني به الأطباء. كان هذا النظام يعمل بطريقة جيدة، مما جعل ليليان تشعر بالامتنان الشديد لتوفر هذه الرعاية الطبية المتخصصة للأطفال.

وفي الثالث عشر من نوفمبر ١٩١٨، قررت جيني تراشر أن تعود أخيراً إلى الولايات المتحدة. فقد أتت إلى مصر بغرض البقاء لمدة كافية حتى تطمئن على استقرار أختها. والآن وبعد مرور ثماني سنوات عادت أخيراً لوطنها لترى ما حدث لبيتها الذي أجرته ولترى والديها. شعرت ليليان بالحزن الشديد لفراق

أختها. فقد كانت جيني خير معينة لها في فترة تأسيس الملجأ. في اليوم التالي، الرابع عشر من نوفمبر، كانت هناك أخبار رائعة. فقد انتهت الحرب العالمية واستسلمت ألمانيا لقوات التحالف. لكن الفرحة في مصر تحولت إلى غضب، فبريطانيا لم تطلق قبضتها عن البلاد. فعندما بدأت الحرب، قالت الحكومة البريطانية إنها تحتل مصر لتحمي قناة السويس، والآن لم تعد القناة تحتاج إلى حماية. وبرغم ذلك لم يرد البريطانيون أن يتركوا مصر. بل وأصدروا القوانين التي تضع قيوداً أكثر على الشعب المصري. وخوفاً من التمرد، أمروا أن يسلم كل المصريين أسلحتهم الشخصية للشرطة. فالمصريون في الغالب يحملون البنادق للحماية الشخصية. كره المصريون القانون الجديد وبدأ الغضب يملأهم عندما أجبرتهم الشرطة على ذلك.

كان هناك مشاكل أخرى تعاطفت ليليان مع الكثير منها. أحد هذه المواقف والتي كان من الصعب على ليليان قبولها هي أن البريطانيين أصدروا قراراً بعدم محاكمة أي رجل إنجليزي على أية جريمة يرتكبها في مصر، بما فيها القتل.

وببطء بدأ الغضب يتصاعد، حتى مارس ١٩١٩ حيث بدأ في الاشتعال. ففي الخامس عشر من مارس فتحت ليليان الجريدة اليومية لتقرأ عنواناً كبيراً يقول: "إعدام ستة مصريين ليكونوا

عبرة". سقط قلبها وهي تقرأ المقال وهو تقرير عن أحد الإنجليز كان يتدرب على إصابة الأهداف بإطلاقه النيران على الحمام الذي يملكه أحد الفلاحين. قتل الإنجليزي حماماً كثيراً، مما يعني تناقص عدد البيض الذي يتحصل عليه ذلك الفلاح والذي لم يكن أصلاً متوفراً. ولأن المصريين يعلمون أن هذا الرجل الإنجليزي لن يتم محاكمته على قتل الحمام، طاردوه خارج مكان سكنه. وللأسف لم يكن الرجل معتاداً على الجري، فأصيب بنوبة قلبية وسقط ميتاً. وعندما علمت السلطات الإنجليزية بالقصة، قررت أن تعطي المصريين درساً حتى لا يهددوا الإنجليز مرة أخرى. أمرت السلطة الإنجليزية بإطلاق الرصاص على صاحب الحمام وخمسة من أصدقائه أمام عائلاتهم.

لم تستطع ليليان أن تصدق هذا الأمر. وأصابها الحنق من طريقة تعامل البريطانيين مع الأمر. ألا يفهم الإنجليز أن غضب المصريين مثل الوقود المخزون والمعد للانفجار ؟. فبالتأكيد إن هذا التصرف الرهيب سيجعل غضب المصريين ضد الإنجليز يغلي ويتحول إلى فعل. وقد أثبت الزمن أن تخمينات ليليان كانت في محلها. وبأسرع مما تخيلت أصبح الخطر الذي كان ينتظر مصر وينتظرها هي والأولاد واقعاً.

* * * * * * * * * *

الفصل الحادي عشر

ثورة

في اليوم التالي لصدور تقرير الجريدة عن العمل الوحشي، قام طلاب الجامعات في أكثر من مدينة بتنظيم مظاهرات وسرعان ما تحولت إلى أعمال شغب. وانضم إليهم مصريون آخرون، طلباً للثأر والاستقلال عن بريطانيا. انتشرت الثورة في كل أنحاء مصر، وازدادت أعمال الشغب والنهب ليس فقط في المدن والمراكز بل وفي القرى كذلك. فتم تدمير قرى كاملة أثناء الانقلابات. وتم تخريب خطوط التلغراف والتليفونات مع خطوط السكك الحديدية التي تربط أسيوط بالمناطق المحيطة. فأصبح اتصال ليليان بالناس في المدينة والقاهرة وباقي المدن الأخرى في مصر مستحيلاً. وبرغم كل ما يحدث في البلاد، وضعت ليليان كل تركيزها على الملجأ. واستمرت في أداء مهامها اليومية المعتادة، وهي تأمل أن تظل أسيوط بعيدة عن الشغب الحادث في باقي المدن. لكن لم يستمر الحال على ما هو عليه. فبعد خمسة أيام من بداية الثورة ومع بداية الفجر، لاحظت ليليان شيئاً ما يتحرك وسط الحقول التي تقع حول الملجأ. فذهبت لاستكشاف الأمر وصدمت عندما وجدت حشداً من الرجال

يحملون البنادق والسيوف متجهين عبر الجسر الذي يقع فوق النيل ويقود للضفة الغربية من المدينة. فقد جاء الناس لينهبوا المدينة التي لم يكن الشغب قد وصل إليها بعد.

بدأت الأعيرة النارية تتطاير في كل مكان عبر النهر. ركضت ليليان لتدق الجرس لتدعو الأطفال ليتجمعوا في وسط الملعب. بدأت ضربات قلبها تزداد عندما أدركت أنه ليس أمامها سوى دقائق قليلة لتضع الجميع في مكان آمن. على بعد أربعمائة ياردة خارج الملجأ وفي قطعة الأرض المجاورة كان هناك فرن قديم للطوب. ورغم أنه كان مهجوراً لسنين عديدة إلا أنه ظل متيناً وواسعاً يتسع للجميع. ويمكن لأسواره السميكة المصنوعة من الطوب أن تحميهم من القتال.

عندما تجمع كل الأطفال، قالت ليليان: "أسرعوا. على الكبار أن يأخذوا معهم الصغار ويركضوا نحو الفرن. وتأكدوا أنه لا يوجد أحد بالداخل". وبسرعة بدأ الجميع في الحركة. وبعد وقت قصير كان طابور من الأطفال يشق طريقه في الظلام نحو الفرن القديم. ظلت ليليان في الخلف حتى يمكنها تأمين الملجأ. فبعد أن أغلقت الأبواب، تأكدت من بقاء الأبقار في الفناء والذي سيكون أكثر أماناً لهم.

بعـد أن أغلقت ليليان بوابة الملجأ، حملت الطفلتين المسئولة

عنهما بين ذراعيها، وأخذت طريقها نحو الفرن، وكان بصحبتها إحدى البنات اليافعات تحمل طفلة رضيعة. كان الظلام في هذا الوقت شديداً، ومن صوت أعيرة النيران أدركت ليليان أن القتال عنيف. وبينما هما تركضان، تعثرت الفتاة التي تحمل الرضيعة ووقعت على الأرض، وارتطمت الرضيعة بالأرض. وحينما انحنت الفتاة لتحمل الطفلة، هتفت قائلة: "ماما".

توقفت ليليان لتساعدها. ولما وصلت أمسكت بالطفلة. صدمت عندما لمست يدها دماءًا دافئةً، فأخذت تحدق في الظلام لترى من أين تسيل هذه الدماء. كان هناك جرح بالغ بجوار عين الرضيعة اليمنى. فقد ارتطمت رأسها بقطعة من المعدن الحاد البارز في الأرض. صلت ليليان شاكرة الله لأن قطعة المعدن لم تصب عين الفتاة ثم ضغطت بمنديل على الجرح لتوقف تدفق الدماء. ثم أخذت الطفلة وأكملت ركضها باتجاه الفرن القديم.

أخيراً أصبح الجميع في أمان داخل الفرن. والدم المندفع من جرح الرضيعة توقف، فأعطت ليليان الطفلة لإحدى البنات اليافعات لتعتني بها. وأحصت عدد الأطفال واكتشفت أنها قد تركت اثنتين منهم في الملجأ. فخاطرت ليليان بحياتها لتعود مرة أخرى للملجأ وتسترجع الطفلتين. وكان عليها أن تهرب من رجلين مسلحين كانا ينويان قتلها. وبمجرد أن عادت ليليان مرة

أخرى هي والطفلتان داخل الجدران السميكة للفرن، جمعت كل الأطفال بالقرب منها وبدأت تصلي صلاة شكر لله لأنه حفظهم جميعاً سالمين. ثم تناولت الكتاب المقدس وقرأت "**يسقط عن جانبك ألف وربوات عن يمينك. إليك لا يقرب. إنما بعينيك تنظر وترى مجازاة الأشرار. لأنك قلت أنت يا رب ملجأي جعلت العلي مسكنك. لا يلاقيك شر ولا تدنو ضربة من خيمتك" (مز ٩١:٧-٩)**. وعندما انتهت من القراءة، طلبت من ادوارد، أحد الأولاد الكبار، أن يقرأ الآيات باللغة العربية للأطفال الجدد الذين لم يكونوا يفهمون اللغة الإنجليزية بعد. وعندما انتهت القراءة ظلوا طوال الليل يسمعون أصوات الأعيرة النارية وصرخات الرعب. أخذت ليليان تعزيتها من الآيات التي قرأتها للتو، وحاولت ألا تهتم كثيراً بما سيفعلونه بالملجأ. وفي الساعات الأولى من النهار استسلمت لبعض النوم المتقطع.

عندما استيقظت ليليان باكراً في الصباح، أخذت تتصت في محاولة للتأكد من انتهاء إطلاق النيران. وحين لم تسمع أي صوت في الخارج، قررت أن تتسلل إلى الخارج لتلقي نظرة. رفعت ترباس الباب وخطت خارجاً تحت أشعة الشمس، وذهبت حتى وصلت إلى حافة النهر. كانت تشعر بألم شديد في كاحلها الذي التوى ليلة أمس، وجعلها تعرج.

وفي اتجاه أسيوط كانت هناك سحب سوداء تتصاعد في الأفق. صرخت ليليان وهي تنظر نظرة سريعة على المدينة. فالمكان خربه المجرمون وأحرقوه. أرادت أن تجلس بجوار النهر لتبكي على أهالي أسيوط لكنها لم تفعل. فلديها مائة وسبعة من الأيتام يجب أن تعتني بهم، وبلا شك سوف يصل عدد آخر منهم نتيجة لهذا القتال.

عادت ليليان للملجأ بقلب ممتلئ بالحزن. فقد انتشرت في جدرانه الكثير من الثقوب الناتجة عن الأعيرة النارية التي أصابت الجدران. وبيدين مرتجفتين دفعت الباب لتدخل إلى المطبخ. تدفق إليها إحساس بالراحة عندما أدركت أن الرجال الذين كانوا يطوفون حول الملجأ أثناء القتال وأعمال النهب بالأمس تركوه دون أن يلمسوه. تنفست الصعداء وأخذت ترفع الشكر لله ثم عادت مسرعة للأطفال لتعيدهم من الفرن.

خلال اليوم عاد الجميع بهدوء لممارسة أعمالهم المعتادة . كانت ليليان متأكدة أن القتال لم ينته بعد، لكن أفضل طريقة لتهدئة الأطفال هي استكمال أعمال الملجأ اليومية المعتادة . توارادت الأخبار للملجأ من هنا وهناك طوال اليوم. اجتاح المجرمون كل القرى، وأخذوا يحرقون ويدمرون كل مكان يذهبون إليه. وأبادوا كل المزارع المجاورة ، بما فيها مزرعة

سعيد، وهو أحد معضدي ليليان الأمناء. ومن الواضح أنه الوحيد الذي لم يهرب من المكان، حيث هرب الجميع إلى أسيوط . تعجبت ليليان من شيء واحد وهو أن الرجال لم يلمسوا أي شيء في الملجأ لا المعدات ولا الطعام ولا الملابس. وفي هذا المساء قررت أن تسمح للأطفال أن يناموا في حجراتهم، فقد بدأ القتال يتحرك بعيداً نحو الجزء الجنوبي من أسيوط .

وفي نحو السابعة مساءً كانت البنات اليافعات يضعن الرضع والأطفال الصغار في الفراش، والأولاد يقومون بأداء واجباتهم المدرسية في حجراتهم، عندما سمعت ليليان طرقاً عنيفاً على باب الملجأ. ذهبت ليليان باتجاه الباب متوقعة أن تجد أحدهم وقد أحضر لها أحد الأيتام يطلب منها أن تسمح له بالالتحاق بالملجأ. وعندما فتحت الباب، أطلقت صرخة عالية. فقد دخل الملجأ مجموعة من الرجال يحملون المصابيح والسيوف. دفعوا ليليان بعنف للداخل وأحاطوا بها. وقبل أن تفكر فيما يمكن عمله سمعت صوتاً يصرخ : "أتركوها وشأنها، أتركوها وشأنها".

نظرت ليليان بذهول لجارها سعيد الذي اندفع وسط الرجال مفتولي العضلات. وعندما وصل للأمام، وقف بينهم وبين ليليان وبدأ في الحديث معهم قائلاً: "أنتم لستم من هنا. ولا تعرفون من هي هذه المرأة، لكنني أعرفها. هذه المرأة تأخذ الأيتام والأرامل

المصريين وتقدم لهم الرعاية. لقد وهبت حياتها لخدمتهم. ولم تفعل لنا سوى الخير". وضع رجل ذو لحية ضخمة وعيون ثاقبة مملوءة بالغضب طرف سيفه في بطن سعيد وقال: "إذا لم تبتعد عن الطريق فسأقتلك أنت أيضاً". كان حجم سعيد نصف حجم الرجل الممسك بالسيف. أخذت ليليان تشاهده وهو يرفع نفسه لأقصى ما يمكن وينظر مباشرة لعيني الرجل الضخم. نظر الرجل إلى سعيد ثم إلى ليليان، والتي أخذت تصلي في قلبها، وتسأل الله أن يحميها هي وسعيد.

وبعد أن مر وقت كأنه دهر بالنسبة لليليان، فجأة سحب الرجل سيفه بعيداً عن سعيد، ثم استدار وخرج من الملجأ. وتبعه باقي الرجال. وكما أتوا بسرعة ذهبوا أيضاً بسرعة.

قالت ليليان: "شكراً لك يا سعيد". لم يقل سعيد شيئاً. لكنه انحنى وذهب خارجاً من الملجأ. أخذت ليليان تراقبه وهو يرحل، ثم أخذت تشكر الله من أجل حمايته لها.

وفي صباح يوم الأربعاء شعرت ليليان أن القتال والشغب بدأ يهدأ. ثم أدركت أنها لم تبدل ملابسها منذ الأحد الماضي، فلذلك قررت أن تأخذ حماماً حيث أن الأوضاع أصبحت أكثر أماناً. وبمجرد أن خرجت من الحمام ونظرت للنافذة وجدت مجموعة من الجنود الإنجليز متجهين نحو الملجأ. فبسرعة جمعت شعرها

وخرجت لتحييهم . قالت مندهشة: "مرحباً بكم، تفضلوا لتناول الشاي معي". قال أحدهم: "شكراً لك، آنسة تراشر. كنا نود أن نتناول الشاي معك، لكن عليك أن تغادري المكان معنا الآن". أجابت ليليان: "أغادر؟. أترك الملجأ؟". ثم هزت رأسها قائلة: "بالتأكيد يمكنكم أن تلاحظوا أنه لا يمكنني أن أترك الأطفال. لا لن أغادر المكان".

* * * * * * * * * *

الفصل الثاني عشر

وداع حزين

قال أحد الجنود: "الأمر ليس اختيارياً سواء هناك أطفال أم لا. فقد أمر الجنرال بمغادرة كل الأجانب الذين ليسوا موظفين حكوميين للمدينة غداً. في الحقيقة، هناك باخرتان رابضتان عند النهر لنقل الجميع إلى القاهرة حيث تكونين أكثر أماناً هناك". أجابت ليليان: "القاهرة؟. أمان في القاهرة؟. لكنني آمنة هنا". أشارت بيدها إلى المباني. ثم أكملت حديثها: "بالتأكيد قد لاحظتم أن المكان لم يُمس بأي أذى، بينما باقي البيوت الأخرى تخربت. هذا إلى جانب أنه يوجد أكثر من مائة من الأطفال المصريين ينادونني ماما، فلذلك أنا لست أجنبية".

ابتسم الجندي ابتسامة تعزية لليليان وقال: "بالتأكيد يا آنسة ليليان. فقد سمعت عن الأعمال التى تقومين بها هنا، لكنني لست من يأمر أن تغادري المكان. فيمكنك أن تذهبي وتقدمي التماسك للجنرال إذا أردت. فلديه مكتب في فندق أسيوط. لكن لا يمكنك البقاء هنا هذه الليلة. فقد أمرني أن أرافقك للباخرة".

أخذت ليليان تئن. فلا يمكنها تخيل تركها للأطفال والأرامل الذين يعتمدون عليها في إعالتهم. لكنها تعلم أن الجندي لديه

أوامر يجب أن ينفذها ولن يغادر الملجأ بدونها. قالت ليليان: "حسناً، سيغادر الأطفال معي إلى أسيوط ونقضي الليلة هناك. وفي الصباح أقابل الجنرال وأطلب مساعدته. هل يمكنك أن تترك بعض الجنود هنا ليحرسوا الملجأ عندما نذهب نحن؟". أجاب الضابط: "بالتأكيد. والآن هل تسمحين لنا بتناول الشاي الذي تريدين تقديمه لنا قبل أن نغادر ؟".

استغرق الأمر ساعتين لتجميع الأطفال والملابس والأطعمة والتجهيزات اللازمة للبقاء في أسيوط. وخططت ليليان أن تطلب من المستشفى السماح للبنات والأطفال الرضع بقضاء الليل فيها، ومن المدرسة الأمريكية مبيت الأولاد الكبار بها.

وبقلب يفيض حزناً أخذت طريقها نحو المدينة، وهي تحمل ليلى، أصغر أطفال الملجأ بين ذراعيها. كانت المسافة تستغرق ساعة مشياً على الأقدام عبر الطريق ثم الجسر للذهاب لأسيوط. علم الأطفال الكبار لماذا يقومون بهذه الرحلة، فلذلك بدأ النحيب والبكاء بعد أن عبروا بوابة الملجأ. وبعد وقت قصير أصبح طابور الأطفال كله يبكي، مع بواب الملجأ والأرامل. كانت مشاعر ليليان مضطربة جداً، والدموع تنساب على خديها.

أخذت تصلي وهي في الطريق: "كيف يحدث هذا يارب؟. هل قدتني لأعتني بهؤلاء الناس لمدة تسع سنوات ثم بعد ذلك تسمح

لهم بأن يأمروني بالمغادرة ؟. بالتأكيد يارب أنت تعرف ماذا يعني هؤلاء الأطفال بالنسبة لي". ثم نظرت للرضيعة ليلى التي تحملها بسرور بين ذراعيها. لقد مر شهر واحد على مجيء أحد الجيران إلى الملجأ حاملاً الطفلة وقائلاً: "وأنا قادم من المدينة فوق الجسر الكبير، وعند منتصفه وجدت رجلاً ضريراً على وشك أن يلقي بهذه الطفلة في النيل. فاندفعت نحوه وأمسكت بالطفلة وقلت له: "أيها الرجل الشرير. لا تلقِ بهذه الطفلة الحية في الماء". فأجابني الرجل الضرير قائلاً: "ليس لي مكان أضعها فيه. والآن وبما أنك أمسكت بها فاحتفظ بها لنفسك". والآن أصبح للطفلة ليلى مستقبل مشرق وآمن. على الأقل كان هذا هو الوضع قبل أن يأمر هذا الجنرال ليليان بمغادرة المكان.

أخذت ليليان تتأمل كيف سيكون من سخرية القدر، أنه بعد كل هذا الوقت الذي عانوا فيه من نقص الغذاء والمال يكون سبب غلق الملجأ هو الحكومة البريطانية وليس قلة الموارد.

وصل الحشد الباكي إلى أسيوط، فوضعت ليليان كل فرد في مكانه لقضاء الليل. وقضت هي أسوأ ليلة في حياتها في المستشفى مع البنات والرضع. لم تختبر ليليان في حياتها شيئاً سبب لها حزناً مثل الحزن الذي تسبب فيه إمكانية فراقها للأطفال في الصباح. إن هذا الحزن كان مثل حزنها على فراق

فريدة وموتها مضروباً في ١٠٧ مرة.

بكاء الأطفال جعل من المستحيل على أي شخص أن ينام. على أي حال لم تستطع ليليان أن تنام. أخذت تبكي لدرجة أنها خافت أن تفقد عقلها من شدة البكاء. ثم في حوالي الثالثة صباحاً، شعرت بسلام غامر بدأ يغمرها. فرقدت على سريرها، وبدأ ذهنها يشعر بالراحة للمرة الأولى منذ أيام. فصلت قائلة: "يارب، هل هناك ما تريد أن تخبرني به ؟".

فرض هذا السؤال نفسه على ذهنها؛ إذا كان يجب أن أغادر، فلماذا إلى القاهرة ؟. وإذا لم يكن إلى القاهرة، فأين يمكنني أن أذهب؟. ثم جاءت فكرة أخرى إلى ذهنها. لماذا لا تعودين إلى الولايات المتحدة ؟. فلايوجد ما يمكنك أن تفعليه في القاهرة. لكن إذا عدتِ للولايات المتحدة فيمكنك أن تجمعي المال للملجأ وتحمسي مسيحيين آخرين للصلاة من أجلك.

وقفت ليليان مندهشة لكمية الحماس الذي بدأت تشعر به. فمنذ عشر دقائق فقط كانت تنتحب بشدة لفكرة ترك أطفالها. والآن تشعر أن الله له غرض معين لرحيلها. فياله من فرق أحدثته هذه الفكرة داخلها!. ابتسمت قائلة: "نعم يارب. إن كنت سترسلني، فسوف أعود إلى الولايات المتحدة وأنا سعيدة".

وفجـأة امتلأ ذهنها بالخطط. كانت وكأنها تفكـر فيها منـذ

أسابيع. لم يكن هناك احتياج لغلق الملجأ لمجرد أنها رحلت. فسوف تظل تقوم بدورها الحيوي في تدعيم الملجأ بالمال والمستلزمات الأخرى التي يحتاجها من هناك، كما كانت تفعل طوال التسع سنوات الماضية. ويمكن لمساعدتها الأمينة "زكية ناشد" أن تشرف على الأنشطة اليومية المعتادة بنفسها. كما يمكن الاعتماد على "أومه" والتي كانت أقدر الأرامل عملاً ولها قدرات كثيرة، فيمكنها أن تعتني بالأطفال.

وفي الصباح التالي ذهبت ليليان لترى الجنرال. وعندما قدمت له التماسها لم تندهش عندما رفضه. فقد أصبحت الآن مقتنعة أن الله يريدها أن تعود للولايات المتحدة. لكن ما زال أمامها مهمة صعبة، وهي أن تفصل نفسها عن الأطفال لتصعد على متن الباخرة النهرية فيكتوريا التي ستأخذها إلى القاهرة. كانت تعلم أن الأطفال قد اتفقوا معاً ألا يبكوا حتى لا يجعلوا الأمر أكثر صعوبة على أمهم. ورغم ذلك أخذت شفاههم ترتعش والدموع تترقرق في عيونهم أثناء تقبيل ليليان لكل فرد فيهم لتودعه وتعده بأن تعود في أقرب وقت ممكن.

صعدت ليليان الدرج المتحرك إلى الباخرة مع كثيرين من الأجانب الآخرين. كان معظمهم يحمل حقائب ثقيلة، أما ليليان فكل ما حملته حقيبة بنية متهرئة، هي نفس الحقيبة التي جاءت

بها إلى مصر منذ تسع سنوات. ولم تكن ممتلئة، فكل ما بها هو طاقم آخر من الملابس والكتاب المقدس وقلم وبعض أوراق الكتابة. وهذا كل ما تمتلكه ليليان.

ومن القاهرة أخذت ليليان طريقها نحو الإسكندرية. كانت رحلتها عبر البحر الأبيض المتوسط ومنه إلى المحيط الأطلنطي سريعة. وبعد ستة أسابيع من تركها لأسيوط، وجدت ليليان نفسها مرة أخرى فوق الأراضي الأمريكية. وللوهلة الأولى شعرت أنها أجنبية. فكثير من الأمور تغيرت خلال الأعوام التسعة الماضية التي كانت فيها بعيداً. الملابس أصبحت أقصر وذات خصر ساقط وبلا أكمام. السيارات ذات المحركات تسير في كل مكان، والشوارع أكثر ازدحاماً. وأصبح الشباب الصغير يستمع لموسيقى صاخبة وغريبة عليها. وجوههم الشابة جعلت ليليان تدرك أنها لم تعد صغيرة، فهي الآن كارزة عمرها ٣١ عاماً وتحمل مسئولية رعاية أكثر من مائة طفل.

بعد زيارة سريعة لأصدقائها في نيويورك، توجهت ليليان لزيارة جيني في كاليفورنيا. كانت جيني الوحيدة في الولايات المتحدة التي تدرك نوعية الحياة التي تعيشها ليليان في مصر. بعد وفاة والد ليليان انتقلت والدتها البالغة من العمر ٧١ عاماً للسكن مع جيني. فاستمتع ثلاثتهم بشكل رائع بجمع الشمل ثانية.

بعد أسبوع من إقامتها مع جيني، دعتها إحدى الكنائس المنتمية إلى "مجامع الله أو جماعة الله" ، وهي كنيسة خمسينية جديدة أنشئت منذ خمس سنوات أي في عام ١٩١٤. ومنذ لحظة دخول ليليان من باب الكنيسة شعرت بالراحة وكأنها في مكان اعتادت التواجد فيه طويلاً. معظم الناس في الكنيسة من طبقة العمال والفلاحين، وعندهم حماس وحيوية شديدة وثقة كاملة في الله ، مما جعلها تنجذب إليهم كالمغناطيس. وبعد وقت قصير انضمت ليليان لهذه الطائفة وذهبت في جولة وطنية تتكلم في كنائس جماعة الله . وبرغم أن رئيس الطائفة أعلن بوضوح أنهم لن يستطيعوا تحمل مسئولية توفير المال للملجأ، إلا أن الكثيرين من الأفراد أعطوا ليليان كل ما يقدرون عليه. بالإضافة إلى أن مجلس الكرازة النسائية وعدها بأن يجمعوا الملابس المستخدمة ويشحنوها لمصر لأطفال الملجأ. بينما وعد آخرون بالصلاة لليليان كل يوم. وبالنسبة لليليان كانت الصلاة بنفس أهمية المساعدات المادية التي قدمت لها.

وأثناء جولة ليليان في البلاد استطاعت أن ترسل نقوداً بشكل منتظم لمصر. وبانتهاء الجولة، كانت قد وضعت مبلغاً من المال في حساب بأحد البنوك.

كانت ليليان على اتصال مستمر مع زكيـــة ناشد عن طريق

الخطابات البريدية. وفي ربيع عام ١٩٢٠ قررت العودة لمنزلها بمصر. فالأوضاع السياسية في البلد أصبحت الآن مستقرة وتم السماح للأجانب بالعودة مرة أخرى إلى أسيوط.

كان يوماً رائعاً لليليان عندما مشت مرة أخرى عبر بوابة الملجأ. صرخ الأطفال بفرح شديد عندما رأوها، وسريعاً ما غمروها بالأحضان والقبلات. ظل بعض الأطفال في الخلف، وهم الأيتام الجدد الذين سمعوا فقط عن الأم الأسطورية.

قامت كل من "زكية" و"أومة" بعمل رائع أثناء غياب ليليان. وكان هناك صناديق من الملابس والبطاطين مهداة من أصدقاء ليليان في الولايات المتحدة في انتظار عودتها.

أصبحت حجرات النوم الآن مزدحمة. فبعض الأطفال ينامون في مجموعات من أربعة على سرير واحد. لذلك قررت ليليان أن تبدأ في بناء حجرات نوم إضافية. فأخذ الأولاد الكبار في صناعة قوالب الطوب كما كانوا يفعلون من قبل، وصاروا أيضاً قادرين على مساعدة البنائين المتخصصين في عملهم. كل هذا ساعد على تخفيض تكلفة البناء. وبمجرد انتهاء العمل في المبنى الجديد، امتلأ بالأطفال. وتم التخطيط لمبنى آخر.

وأصبحت ليليان، أو ماما ليليان تراشر، كما يدعوها الجميع، معروفة جداً في مصر. وفي عام ١٩٢١ جاء السلطان المصري

لزيارتها. كان يعيش في الملجأ مائة وخمسون طفلاً. أعجب السلطان بشدة بهم فأعطى ليليان خمسمائة جنيهاً لتفعل بها ما يحلو لها. تم وضع المبلغ مباشرة تحت حساب المباني. فقد توسعت رؤية ليليان لتشمل مبنى مهني للأولاد. وشيئاً فشيئاً ، تم بناء ورشتي نجارة وخراطة وتجهيزهما بأحدث الأجهزة والمعدات . وكان بعض الأولاد الكبار يتنافسون في الحصول على مشاريع صيانة فيما حول الملجأ.

ومنذ أن استقرت الأوضاع السياسية في مصر، بدأ كثيرون من السياح الإنجليز والأمريكان في التدفق مرة أخرى في البلاد، راغبين في رؤية الأهرامات وأبي الهول والمقابر الفرعونية. ولسعادة ليليان، كان كثيرون منهم يأخذون جولة في المركب عبر النيل للذهاب للأقصر. وكانت المراكب السياحية الجديدة تتوقف دائماً في أسيوط. وكانوا يشجعون السياح على النزول من المركب ليتمشوا في المدينة فتكونت لدى ليليان فكرة لطباعة دعوة لهؤلاء السياح لزيارة أكبر ملجأ في مصر. وقد قبل الكثيرون منهم الدعوة، فاستطاعت ليليان أن تكوّن أصدقاءًا جدداً كثيرين والذين وعدوها بتدعيم الملجأ بطريقة أو بأخرى.

استمر العمل في النمو، وفي عام ١٩٢٤ أصبح عدد الأطفال الذين يعيشون في الملجأ ثلاثمائة طفل. كانوا يحتاجون إلى ألف

دولار شهرياً لإطعامهم ولشراء ملابس لهم جميعاً. وللمساعدة في تغطية التكاليف قامت بعض البنات بتفصيل الملابس للأطفال. وكانت ليليان تصر على أن تقص هي قطع القماش بنفسها. فقد كان القماش غالياً، وكانت هي تعلم كيف تحصل على أكبر عدد ممكن من القطع من كل ثوب من القماش والذي تشتريه من المصنع. وحاكت السيدات من كنيسة جماعة الله في الولايات المتحدة الملابس للأطفال وشحنوها لأسيوط.

والآن تم بناء كل بوصة في الملجأ، وبدأت ليليان في الصلاة من أجل شراء قطعة الأرض المجاورة للملجأ من جهة الجنوب وهي أرض خصبة. وأخذت تتخيل الأولاد وهم في مزرعة للخضروات والأبقار تأكل من حشائش الأرض. إنه أمر رائع أن يتوفر مصدر منتظم للألبان الطازجة للأطفال الرضع.

جاءت استجابة صلاة ليليان بطريقة غير معتادة. فقد سمعت مجموعة من العائلات المصرية الغنية بالاحتياج، فجمعوا معاً مبلغاً ضخماً من المال استخدموه في شراء الأرض التي كانت مساحتها فدانين ونصف. وحين قدموها لليليان، امتلأت بالسعادة حتى أنها لم تستطع الكلام. فكل قدم مربع إضافي من الأرض يمثل فرصة لقبول عدد أكبر من الأطفال المعوزين في الملجأ.

بدأت ليليان في جمع المال لشراء قوالب الطوب ولدفع

مصاريف العمال لبناء عنابر النوم الجديدة. ومع استمرار نمو الملجأ ازدادت الاحتياجات المالية لتغطية التكاليف اليومية. ولجمع هذه الأموال كانت ليليان تركب حمارها لتزور عدداً من الأسر الغنية. فتشرح لهم العمل في الملجأ وتطلب من كل عائلة مساعدة الملجأ مادياً حسب إمكانياتها.

وفي أحد الأيام احتاجت ليليان لخمسة وسبعين جنيهاً لسداد بعض الاحتياجات الضرورية في الملجأ. وكالعادة، ركبت على حمارها في الصباح الباكر وأخذت طريقها لزيارة إحدى العائلات الغنية التي تسكن في إحدى ضواحي أسيوط. وعندما وصلت ليليان للمنزل، قالوا لها إن رب الأسرة ما زال نائماً. فقررت أن تعود وقت الظهيرة. وعندما رجعت للمرة الثانية، قالوا لها إن الرجل خرج. وفي الثالثة بعد الظهر عادت ليليان للمرة الثالثة، فقالوا لها إنه مشغول جداً ولا يستطيع أن يقابلها الآن. قررت ليليان أن تنتظر حتى ينتهي مما يقوم به. قادها الخادم لحجرة الاستقبال، حيث جلست على كرسي خشبي.

بعد مرور ساعة لم يظهر الرجل. شعرت ليليان بروحها تنكمش داخلها. عبرت إحدى الخادمات أمام حجرة الاستقبال، ونظرت لليليان وقالت: "لو كان عندي المال، لأعطيته لك".

وعندما ذهبت الخادمة، أدركت ليليان أنها غير مرغوب فيها

في المنزل وأن الرجل لم يكن مشغولاً بل كان يتهرب من مقابلتها. غطى ليليان شعور قوي بالاحتقار، وبدأت في البكاء. ومن يأسها ركعت على ركبتيها بجوار الكرسي وأخذت تصلي قائلة: "لا يمكنني أن أفعل هذا الأمر مرة أخرى يارب. سأعتني أنا بالأطفال. بينما توفر لنا أنت المال الذي نحتاجه. لن أستطيع أن أركب حماري مرة أخرى وأذهب لأتسول النقود، وبعد ذلك يكون عندي القوة الكافية للاعتناء بالأطفال".

توقفت عن البكاء، لكنها ظلت راكعة لعدة دقائق أخرى. وأضافت إلى صلاتها قائلة: "يارب، أرجوك أن ترسل لي الخمسة والسبعين جنيهاً اليوم. وبهذه الطريقة سأعرف أنك قد استمعت إلى صراخي وأنني أسير في طريقك".

بعد ذلك وقفت على قدميها، وتركت منزل العائلة الغنية، عائدة للملجأ. وعندما وصلت، علمت أنه في أثناء غيابها جاء صديق مصري لزيارتها. وعندما لم يجدها، ترك ورقة ومعها علبة صغيرة، سلمتها لها " أومة" عند وصولها.

فتحت ليليان الورقة وقرأتها. كانت تشرح أن ابنة الصديق قد خطبت والعائلة تريد مشاركة ليليان لهم في فرحهم. فتحت ليليان العلبة فوجدت لفة من النقود. وعندما عدتها اكتشفت أن العلبة تحتوي ليس على خمسة وسبعين جنيهاً بل على مئتين .

صلت ليليان قائلة: " شكراً لك يا رب. لن أذهب مرة أخرى على حماري لأطلب المال. بل سأقضي وقتي في الاهتمام بالأطفال واثقة أنك ترسل المال اللازم لطعامهم وملابسهم وتعليمهم ".

* * * * * * * * * *

الفصل الثالث عشر

بركات غير متوقعة

سمعت ليليان انطلاق صفير الباخرة الفاخرة التي تربض في النيل. وبشكل تلقائي جمعت كومة من المطبوعات التي تحكي عن الملجأ وذهبت للمدينة. وجدت الباخرة مرابضة بالمرسى على النيل. صعدت على متن الباخرة وبدأت توزيع المطبوعات.

قالت للناس: "تعالوا لتنظروا أكبر ملجأ في مصر والذي يدار بالإيمان". لم يظهر الاهتمام على أي شخص. فاتجهت لمنضدة على سطح السفينة حيث كان يجلس جماعة من الناس يشربون الشاي. ومرة أخرى دعتهم لزيارة الملجأ. لم يلتفت إليها أحد ولا حتى رفع رأسه. كررت الدعوة. وفي هذه المرة وقف شاب كان يجلس بالقرب منها واستدار إليها، مثبتاً عينيه عليها ثم نفخ دخان سيجارته في وجهها وقال: "إنني في أجازة ترفيهية. وآخر ما أود رؤيته هو جماعة من الأيتام". سمعت ليليان سخريتهم حول المنضدة. فاستدارت وأخذت طريقها مبتعدة. في كل السنوات التي قضتها في زيارة البواخر ودعوة الناس لزيارة الملجأ، لم يسبق لأحد أن عاملها بمثل هذه الوقاحة. وبحزن، مشت على سطح الباخرة وهي تتساءل هل يوجد من يهتم بزيارة الملجأ.

وعندما أصبحت على وشك الاستسلام سمعت صوتاً خلفها يسألها: "هل يمكنني الحصول على إحدى مطبوعاتك ؟".

استدارت ليليان لترى امرأة صغيرة جميلة شقراء وجهها دافيء ومشجع ملأته ابتسامة وجهها وعينيها وهي تتناول منها الكتيب الصغير. ثم قرأته بسرعة وقالت لها: "أنا الليدي إينسكيب سيدة أسكتلندا. يسعدني جداً أن أرى ملجأك. هل يمكنني المجيء للزيارة هذا المساء؟". أجابت ليليان وهي تبادلها الابتسامة: "بالطبع على الرحب والسعة".

قضت ليليان بقية اليوم في تنظيف الملجأ وترتيبه. ومع بداية المساء أصبح كل شيء جاهزاً. بعد السابعة بقليل كان هناك قرع على الباب. كانت ليدي إينسكيب وبصحبتها رجل يبدو أنه يكبرها بثلاثين عاماً. قالت الليدي إينسكيب: "مساء الخير يا آنسة تراشر. اسمحي لي أقدم لك أبي، اللورد ماكلاي". صافحته ليليان ثم دعتهما للدخول. لم تكن ليليان معتادة على الحديث مع شخصيات لها ألقاب مثلهما، فلذلك لم تكن تعلم كيف تخاطبهما وفي النهاية سألتهما. فأجاب اللورد ماكلاي قائلاً: "يا عزيزتي الآنسة تراشر، يمكنك أن تلقبينا بالطريقة التي تفضلينها، فأي لقب لن يقارن بأخلاقك النبيلة وبما تقومين به من عمل رائع". توردت وجنتاها عند سماعها هذه المجاملة اللطيفة.

وبثقة أخذت ليليان ضيفيها في جولة حول الملجأ. بدا عليهما الإعجاب الشديد بما تقوم به. وقبل أن يغادرا المكان، أعطاها لورد ماكلاي عشرين جنيهاً ووعدها أن يفعل كل ما يمكنه لمساعدتها في تعضيد عملها. وكان عند كلمته. فبعد مغادرة الباخرة لأسيوط وعودتها إلى القاهرة أرسل لها مائة جنيهاً. فامتلأت ليليان بالسعادة.

بعد فترة ليست طويلة من زيارة اللورد ماكلاي والليدي إينسكيب، اجتمعت جماعة من أغنى السيدات المصريات وهذه المرة ليس لشراء قطعة أرض بل لشراء سيارة لليليان. لم تستغرق ليليان الكثير من الوقت لتتعلم قيادتها. وبسرعة أصبحت السيارة معروفة في أسيوط والقرى المحيطة. ولم تعد ليليان تركب الحمار مرة أخرى. فالآن لديها مقعد من الجلد تجلس عليه في السيارة ، بدلاً من ظهر الحمار.

وبطريقة أو بأخرى، كان المال يأتي للملجأ. وفي إحدى المناسبات جاء أحد الرجال المصريين الأغنياء لزيارة الملجأ. وذلك في صباح يوم الثلاثاء، كان الرجل قد سمع عن العمل الذي كانت تقوم به ليليان وأراد أن يراه بنفسه. وبعد الجولة المعتادة، سأل ليليان: "أين هو مخزن الطعام." أجابت ليليان: "عندما يكون لدينا طعاماً، نضعه في المخزن الواقع خلف

المطعم، لكن في الوقت الحالي المخزن فارغ". سألها الرجل المصري: "هل تقصدين أنه لا يوجد طعام للغد؟". أجابت ليليان: "نعم". تعجب الرجل وقال: "يا له من أمر مرعب، هل يمكنك أن تنامي اليوم؟". ضحكت فتاة واقفة بجوارهما بصوت مرتفع. فاستدار إليها الرجل وقال: "يا آنسة، هذه ليست نكتة. فقد قالت أنه لا يوجد طعام للغد، ويوجد هنا مئات الأفواه التي يجب إطعامها". قالت الفتاة: "ماما لم يكن أبداً لديها طعام للغد، ولم تفقد أبداً قدرتها على النوم". سأل الرجل: "هل هذا الكلام صحيح؟. هل حدث هذا من قبل؟". ثم توقف للحظات ليلاحظ وجه ليليان، وأكمل قائلاً: "ماذا تفعلين إذا لم تصل نقود لشراء الطعام؟". ابتسمت ليليان. إنه أمر رائع أن تخبر الناس أن الله يسدد احتياجاتهم، بل وأن تريهم هذا أيضاً. قالت:"طوال السنوات الماضية التي مرت بالملجأ لم يفقد الأطفال وجبة واحدة. بالتأكيد امتحن الله إيماننا عدة مرات، لكنه لم يخذلنا أبداً، ولا أعتقد أنه سيخذلنا الآن".

أخذت ليليان تراقب الضيف وهو يحاول استيعاب ما قالته. كانت تعلم أن الأمر مثير للدهشة، أن تعتني امرأة أجنبية بمفردها بخمسمائة طفل وأرملة بدون حصولها على مصادر ماليــة ثابتة. ذكّرت ليليان نفسها أنه بدون مساعدة الله لها لكان

الأمر مستحيل.

باكراً في صباح اليوم التالي، عاد الرجل مرة أخرى لزيارة ليليان وأخبرها قائلاً: "بعد أن تركت الملجأ بالأمس، ذهبت لزيارة قرية مجاورة للقيام ببعض الأعمال هناك. فذكرت أمام الرجل الذي كنت في زيارته أنني وصلت للتو بعد زيارة ملجأك. فأعطاني هذا وطلب مني أن أعطيه لك في المرة القادمة التي أراك فيها". وبنظرة مليئة بعدم الإيمان، سحب الرجل مائة جنيهات من محفظته. وقال: "والآن أصبح لديك الطعام الكافي ليوم آخر". ابتسمت ليليان قائلة: "الرب يطعم العصافير ويلبس زنابق الحقل، وأيضاً يعتني بالأرامل والأيتام". أجاب الرجل: "لايمكنني أن أنكر هذا، إنه أمر رائع، رائع جداً".

بعد مرور أسبوعين امتحن الرب إيمان ليليان مرة أخرى. وهذه المرة عن طريق أرملة جاءت عند بوابة الملجأ. كان اسمها "طوفا". وبعد أن حيتها ليليان، عرفت أنها سارت أربعة أميال مع أطفالها الثلاثة لتصل إلى الملجأ. كانت هي أيضاً شبه ضريرة وحاملاً في طفلها الرابع. أخبرت ليليان قائلة: "زوجي أصبح بلا عمل منذ ثمانية أشهر، وليس لدينا أي شيء نأكله. أرجوك ساعدينا". وبمشاعر من الشفقة على المرأة البائسة، أعطتها ليليان خمسة جنيهات من صندوق الملجأ واثنى عشر

رغيفاً وبعض الأرز والسكر وست قطع من الصابون. ثم أخذتها مع أطفالها في السيارة للمدينة حيث اشترت لهم طماطم وبطاطس وزبداً وبعض اللحم. وبعد ذلك أخذتهم خارج المدينة لبيتهم الخشبي الذي كان يبدو عليه القدم.

وفي طريق عودتها توقفت عند محل البقالة في أسيوط لتشتري بعض الاحتياجات للملجأ. أخبرت ليليان البائع بما تحتاجه. وقبل أن يذهب لإحضارها. خرج الأستاذ بدير صاحب البقالة من الحجرة الخلفية وقال للبائع: "أحضر لها جوالاً كبيراً من الأرز، وصندوقاً كبيراً من السكر، ومائة قطعة صابون". قالت ليليان: "لا يمكنني دفع ثمن كل هذا، كما أنني لا أحتاج إلى صابون". قال الأستاذ بدير: "هذه الأشياء هدية لك. احتفظي بها إلى أن تحتاجي إليها. قالت وهي تغادر المتجر: "شكراً من أجل كرمك، يباركك الرب".

وأثناء عودتها للملجأ أخذت تشكر الله لأنه سدد احتياجهم. لقد أعطت طوفا القليل من الأرز، والآن لديها جوال كبير من أفضل الأنواع. وأعطتها القليل من السكر، و الآن لديها صندوق كبير من السكر. وأعطتها ست قطع صابون، والآن لديها مائة قطعة. لم يكن هذا كل ما في الأمر، ففي المساء وصل الدكتور عزيز من أسيوط ليوصل خمسين جنيهاً للملجأ كان أحد رجال الأعمال

الأغنياء قد تبرع به. فقد أعطت ليليان خمسة جنيهات لطوفا والآن وصل إليها خمسون جنيهاً بدلاً منها.

بعد هذا الأمر بوقت قصير، وصل رجل آخر للملجأ. وهو رجل عجوز لم يسبق لليليان أن رأته من قبل. ومن منظره عرفت ليليان أنه فقير جداً. كان قد وصل في نفس الوقت الذي كان بصحبة ليليان فوج سياحي من شركة توماس كوك للرحلات النيلية، حضروا لمشاهدة الملجأ. أخذت تصلي ليلمس الله قلوبهم ليعطوا من أموالهم للملجأ، حيث تعاني من نقص المال. وعندما وقعت عيناها على الرجل العجوز تركت السائحين للحظة وذهبت لتدعوه للدخول. قال: "لا، ليس الآن. فيبدو أنك مشغولة". تركته على البوابة وأكملت الجولة مع المجموعة. وعندما انتهت الجولة، شكروا ليليان وتبرعوا بثلاثة عشر جنيهاً للملجأ. وبرغم امتنانها لهم إلا أنها تعلم أن هذه النقود لن تكفي الاحتياجات القائمة.

وبينما كانت تتجه نحو المبنى الرئيسي للملجأ، جاء الرجل العجوز خلفها وحياها. فقالت له: "هل تحب تناول الشاي معي؟". أومأ الرجل رأسه بالإيجاب وتبعها لحجرة الإستقبال. وعندما جلسا أعطاها الرجل بخجل ورقة مالية مجعدة. كانت ورقة بخمسين جنيهاً، وقال لها: "هذه لملجأك". منعت ليليان نفسها من

الضحك بصوت عال بصعوبة، وهي تفكر في كل هؤلاء السياح الأغنياء وهم يعطونها ثلاثة عشر جنيهاً بينما يعطيها رجل مصري واحد عجوز وفقير أربعة أضعاف هذا المبلغ. إن طرق الله ليست كطرقنا.

في مساء يوم ٧ أبريل عام ١٩٢٧، حدث شيء غير معتاد في الملجأ. دعت ليليان الأطفال والأرامل كالعادة لاجتماع التأمل اليومي المعتاد، والذي كانت تقرأ لهم فيه من الكتاب المقدس وبعدها يصلون جميعاً معاً. قرأت ليليان جزءً من الكتاب المقدس وبدأت في شرح معناه للأطفال حين بدأت تسمع شهقات ونحيب في الحجرة. وفجأة بدأ الأطفال يركعون على ركبهم ويعترفون بخطاياهم بصوت عالٍ ويطلبون من الله أن يغفر لهم ويغير قلوبهم في الداخل. وبعد وقت قصير غرقت ليليان وسط صوت الصلوات والاعترافات. استمر الاجتماع طويلاً. وعندما صرفت الأطفال إلى حجرات نومهم، استمروا في الصلاة في مجموعات معاً، أو بمفردهم على أسرتهم. وفي اليوم التالي كانت الصلاة والتوبة مستمرة. واستمر هذا الأمر لخمسة أيام. وخلال هذا الوقت تغيرت حياة كثير من الأطفال في الملجأ تماماً. طلب أطفال من أطفال آخرين الغفران من أجل سوء معاملتهم لهم، وبدأت مشاعر الحب والقبول تتجدد بين الجميع في الملجأ.

لم يقتنع الأطفال بالبقاء في الملجأ والاستمتاع بالاختبار الرائع، بل طلبوا السماح لهم بالخروج إلى أسيوط والقرى المحيطة ليعلنوا للآخرين ما حدث معهم في الملجأ . وافقت ليليان، فسمع كثيرون من المصريين في القرى الصغيرة خبر الإنجيل عن طريق الأطفال، وسلم كثيرون منهم حياتهم للرب.

اهتمت ليليان كثيراً باحتياجات الأطفال الجسدية في الملجأ، وفرحت جداً بما يحدث الآن. فقد بدأت ترى ثمار سنوات من الصلاة ومشاركة رسالة الإنجيل مع الأطفال. وفي خطاب إلى الولايات المتحدة كتبت: "لديّ أخبار رائعة لكم. أعطانا الله واحدة من أروع النهضات التي رأيتها في حياتي. فقد غمرت قوة الله الملجأ مثل فيضان هائل، ومثل نيران مروعة، أو مثل ما يمكنني تخيله عما سيحدث يوم الدينونة العظيم. فمئات من الأطفال كانوا على وجوههم يصرخون إلى الله ليرحمهم، وبعضهم كان يهتف من الفرح والسعادة وسط البركات الجديدة الرائعة".

* * * * * * * * * *

الفصل الرابع عشر

بركات وخسائر

في يوم عيد الشكر، في شهر نوفمبر عام ١٩٣٠، جلست ليليان على مكتبها تتذكر كيف كانت تقضي عيد الشكر في الولايات المتحدة. فالأمر يبدو الآن كأنه حلم بعيد. فقلبها أصبح ينتمي إلى مصر. حتى أنها كانت تفكر باللغة العربية معظم الوقت. وبقلب مستنير تناولت قلماً وبدأت في كتابة خطابها الدوري الذي ترسله إلى بلدها إلى كنيسة جماعة الله .

> في كثير من الأوقات لم يكن الله يرسل مجرد مساعدات بل كان يرسل بالضبط ما نحتاج إليه. فمنذ أسبوعين، جاءت إليّ المسئولة عن رعاية الأولاد في سن الحضانة وقالت لي إن مراتب أسرة الأطفال قد بليت وبعض الأطفال ينامون تقريباً على السوست. قلت لها إنني آسفة جداً لكنني لا أملك مالاً وأعتقد أيضاً أن كل القطن المخزون من العام الماضي قد تم استخدامه. وقلت لها أن يصلوا لله حتى يفعل شيئاً. وأرسلت في طلب المسئولة عن المفروشات. وبينما كان

ثلاثتنا نناقش الأمر معاً، وعندما ذكرت لنا أن
كل القطن الذي تبقى من العام الماضي قد نفذ،
نظرت من النافذة ففوجئت بعربة نقل تدخل
الملجأ محملة بكمية كبيرة من القطن (يقدر ثمنه
بحوالي خمسين دولاراً)، كتبرع للملجأ.

وتشجع ليليان نفسها هي والعاملين بالملجأ خلال الأوقات الصعبة الكثيرة التي تعبر بهم، فتردد الآية القائلة: "إلى هنا أعاننا الرب". وبطريقة ما كانت الأشياء التي يحتاجها الملجأ أكثر تظهر في آخر لحظة. بعد ثلاثة أيام من البدء في كتابة خطابها، أضافت شيئاً آخر إليه.

ذهبت بعض البنات للمسئولة عن الصابون،
وطلبن منها بعض الصابون. لكن لم يكن هناك
أي صابون. وفي نفس اليوم طلبت أم هذه
المسئولة والتي كانت مريضة بعض الأرز. لم
يكن في المخزن سوى القليل جداً منه. وفي
حوالي الساعة الخامسة، وصلت سيارة محملة
بكل أنواع العطايا، الكبيرة والصغيرة. كانت
تحمل ست صفائح من الزبد كل منها يسع خمسة
جالونات، وست صفائح من الجبن، وكرتونة

كبيرة من الصابون، وجوال كبير من الأرز،
وجوالين ونصف الجوال من السكر، وأشياء
أخرى أصغر. وتقدر كل هذه المواد التموينية
بحوالي مائة دولار. فقد توفيت سيدة منذ أربعة
أشهر، وقبل موتها طلبت من أقاربها إرسال كل
ما في مخزنها للملجأ.

كانت هذه العطايا أثمن من النقود والإمدادات التي ترد من الولايات المتحدة والتي بدأت في التناقص. فالعالم يمر بأزمة كساد كبرى، والمال أصبح شحيحاً في كل مكان. وفي نفس الوقت وصلت للملجأ أعداد كبيرة من الأطفال لم يسبق لها مثيل. انجذبت ليليان بشدة لأحد هؤلاء الأطفال، صبي ضئيل الحجم وجدوه بقرب طريق السكة الحديد في صباح أحد أيام الشتاء القارص. وكان من الواضح أن الطفل بات طول الليل عرياناً ووحيداً في هذا المكان. وجده نجار يعمل في الكلية الأمريكية بأسيوط وهو في طريقه لعمله. وبمجرد أن سمعت ليليان عن الطفل، حثت النجار على إحضاره لها بأسرع وقت ممكن. وصل الطفل للملجأ في الثامنة صباحاً، ملفوفاً في شوال قمح قديم ويغطيه التراب والقاذورات نتيجة بقائه طوال الليل في البرد والعواصف.

فحصت ليليان الطفل بعين خبيرة وعرفت أنه لا يبلغ أكثر من اثني عشر يوماً. وكانت تعلم أنه يجب رفع درجة حرارة جسمه ليتمكن من الحياة. فملأت وعاءاً بماء ساخن وبدأت في غسله وتدفئته في الوقت نفسه. وبسرعة أصبح جسده نظيفاً من القاذورات والتراب، وبدأ في الاسترخاء بينما أخذت تغني له. ثم قالت: "أعتقد أننا يجب أن ندعو اسمك فهيم عبد الله" ليجعلك الله شخصاً فهيماً متعبداً له .

رفعت ليليان الطفل ثم نشفته، وألبسته ملابس جديدة. ملأت زجاجتين من الماء الساخن ووضعتهما في فراشه لتحفظه دافئاً. ثم سقته زجاجة من اللبن الدافيء. وبرغم أن بداية حياته كانت قاسية، إلا أنه نجح في الاستمرار فيها منذ اليوم الأول له في الملجأ. فرحت ليليان عندما رأت الطفل ينمو بقوة وسعادة.

بعد انتهاء فترة الكساد، ظلت ليليان مندهشة لكيفية استمرار الملجأ في الحياة. لقد كان الدخل السنوي للملجأ عام ١٩٢٧ حوالي ٢٥ ألف دولار. وفي عام ١٩٣٣ هبط إلى أقل من ١٥ ألف دولار. لكن هذا العام لم يكن انخفاض الدعم المالي هو أكثر شيء أقلق ليليان بل كان هناك ما هو أسوأ.

حدث هذا في بداية شهر يونية عندما سمعت ليليان بعض الأنباء من بورسعيد، حيث يوجد الملجأ السويدي. قالت الأنباء

إن إحدى مكرسات الخدمة في هذا الملجأ صفعت بنتاً في الثامنة من عمرها. فهربت الطفلة مسرعة وأخبرت الشرطة عن هذا وقالت أيضاً إنها ضربتها لرفضها أن تصبح مسيحية.

وخلال ساعات أصبحت التهمة حديث مصر كلها. وأخذ الناس يتساءلون كيف يمكن للمسيحيين أن يؤتمنوا على تربية الأطفال غير المسيحيين؟. ولماذا لا يكون هناك ملجأ خاص بالأطفال غير المسيحيين يتعلمون فيه مباديء دينهم ؟. تم طرد المكرسة السويدية من مصر. لكن لم يكن هذا كافياً لكثير من المصريين. فطلبوا نقل كل الأطفال غير المسيحيين من الملاجيء المسيحية إلى ملاجيء خاصة بهم. وأسوأ من هذا أن بعض القادة غير المسيحيين بدأوا يختلقون الطرق لمضايقة الخدام الذين يعملون وسط المسيحيين الأقباط، آملين أن يطردوا كل الخدام من البلاد .

ولم يمضِ وقت طويل حتى استقبلت ليليان الزيارة التي كانت تخشاها. فقد وصل أحد مسئولي الحكومة أمام باب الملجأ. دعته ليليان للدخول. ودخل الرجل مباشرة في الموضوع قائلاً: "هل لديك هنا فتاة تدعى بولين؟". أجابت ليليان: "لدي فتاة بهذا الاسم تبلغ اثنين وعشرين عاماً. هل هي من تقصدها؟". أومأ الرجل المسئول رأسه بالإيجاب وقال: "لقد وصل للمحافظ تقرير بأنكِ

تدفعين لبولين وأختها الصغرى دولاراً ونصف دولار شهرياً لتحويلهما للمسيحية. ونعلم أيضاً أنك قمت بتعميدها. هل لديك ما تجيبين به عن هذا الأمر؟".

شبكت ليليان يديها خلف ظهرها حتى لا يلاحظ المسئول أنهما ترتجفان. ثم أخذت نَفَساً عميقاً وبدأت تشرح الموقف له قائلة: "لقد حضرت إلينا بولين وهي في الرابعة من عمرها. وجدها عسكري تائهة في الصحراء فأخذها إلى المستشفى الأمريكية. وعندما بلغت السادسة هربت من المستشفى وجاءت إلى هنا. فاتصلت بالمستشفى وقلت لهم إنها عندنا. فقال لي المسئول في المستشفى إنه يمكنني الاحتفاظ بها إذا شئت ذلك. وحيث أنها ليست مريضة، لذلك لم تكن المستشفى مكاناً ملائماً لها. ولذلك عندما وصلت إلى هنا تأقلمت مع الوضع بسرعة شديدة. ولم يكن لدينا وقتها أية فكرة هل هي قبطية أم لا. وعندما بلغت الرابعة عشرة من العمر طلبت منا أن نعمدها، ففعلنا لها ما أرادت".

توقفت ليليان للحظات لتصلي في صمت صلاة قصيرة. "يارب أرجوك ساعد هذا الرجل على إدراك ما أقوله. فحياة سبعين طفلاً متوقفة على هذا الأمر؟". ثم أكملت حديثها مع المسئول: "منذ عامٍ مضى أرادت بولين أن تبحث عن أهلها،

فبدأت أجري الاتصالات. وفي النهاية أمكننا التوصل إليهم. وقد كانوا عائلة غير مسيحية. توفي الأب ، لكن الأم على قيد الحياة. وكان لبولين إخوة كثيرون ولكنهم يعانون الفقر الشديد. فلذلك طلبت الأم منا إدخال أختها الأخرى مريم للملجأ وتربيتها بنفس كيفية تربية بولين. وافقنا على هذا الأمر. ثم طلبت منا بولين أن نضع أمها في قائمة الأسر الفقيرة التي يساعدها الملجأ ضمن مجموعة الأرامل والعجائز الذين ندعمهم شهرياً بمبلغ من المال. قررنا أن نعطي أم بولين دولاراً ونصف دولار شهرياً لنساعدها في إطعام بقية أطفالها. لكن لم يكن هناك أي مقابل لهذه النقود".

وبعد أن شرحت ليليان الموقف بأفضل ما أمكنها، أخذت تراقب وجه المسئول. لكن كان من المستحيل تحديد ما إذا كان متعاطفاً مع حالتها أم لا، أو ما إذا كان قد صدقها أم لا.

أجاب قائلاً: "أريد الاطلاع على قائمة الأسر، وسأرفع تقريراً للمحافظ بكل ما قلته". سألت ليليان: "وماذا يحدث بعد ذلك؟". هز الرجل كتفيه وقال: "بعد ذلك ننتظر ما يقوله المحافظ".

استمرت التوترات في الازدياد في الأسبوعين التاليين. وبدأ الناس في جمع آلاف الجنيهات لبناء ملجأ جديد حتى لا يضطر الأطفال غير المسيحيين للذهاب للملاجيء المسيحية. وفي وسط هذه الاضطرابات إندست بعض العناصر التي قامت ببعض

الأعمال العدوانية في أماكن مختلفة من المدينة. وفي نفس الوقت أرسل المحافظ عدة مسئولين لتفتيش كل شيء في الملجأ. أخذ المسئولون يفحصون دفاتر الحسابات ثم أجروا مقابلات مع العديد من الأيتام. وأخذوا يستجوبون الأرامل والمدرسين. ثم أخذوا نسخاً من كل الكتب الدراسية التي وضعتها ليليان.

وفي النهاية، في الخامس من شهر يوليو، أرسل المحافظ لليليان أخباراً لم تكن سارة. فبرغم أنه شكرها على كل ما قامت به من عمل، إلا أنه قرر أن يترك كل الأطفال غير المسيحيين الملجأ في خلال عشرة أيام. ارتجف جسد ليليان وهي تستمع لهذا الخبر. فسبعون من أطفالها سوف يؤخذون منها مرة واحدة. كان هذا أكثر من قدرتها على الاحتمال.

بعد عشرة أيام وصل مسئولون من عند المحافظ لأخذ الأطفال السبعين. أخذت ليليان تشاهد الأمر وهي عاجزة عن عمل شيء. وكان قلبها يخفق بشدة أثناء ركوب الأطفال داخل أتوبيسين. كان الكثيرون منهم في طريقه لترك البيت الوحيد الذي عرفوه. وما زاد من غضب المسئولين، هو إصرار ليليان على تقبيل الأطفال جميعاً وهي تودعهم. كانت حنان فتاة ضريرة تبلـــغ من العمر ستة أعـــوام ، وتعاني من تقوس يدها

ورجلها. وقد التحقت بالملجأ وعمرها بضعة أيام. وكان صعباً على ليليان أن تراها تغادر الملجأ، لأنها تحتاج إلى رعاية خاصة. وعندما انحنت لتقبل حنان قبلة الوداع، سحب أحد المسئولين ليليان جانباً وقال لها وهو عابس الوجه: "لماذا تقبلينها؟. أنظري إليها. فليس فيها ما يفرح . يمكنك الاحتفاظ بها". قالت ليليان بذوق شديد وهي تقود حنان بعيداً عن طابور الأطفال الذاهبين للأتوبيس: "شكراً لك". ثم أخذت تهمس بصلاة شكر لله. لقد كانت متأكدة أن المسئول أراد أن يهينها بتركه للطفلة، لكن في الحقيقة إن الطفلة حنان كانت أكثر الأطفال احتياجاً للرعاية. ولو أعطيت ليليان فرصة للاختيار لاختارت أن تبقى حنان معها.

كما سمحوا لبولين، بالبقاء في الملجأ. فوقفت بجوار ليليان والدموع تجري من عيونهما، بينما أخذت الحافلتان طريقهما بعيداً عن الملجأ.

ظل الأطفال يبكون مدة طويلة من أجل "ماما". ولذلك طلب المسئولون من ليليان أن تأتي لزيارتهم لتهدئتهم. وحين رأتهم تعساء انكسر قلبها. لكنها بذلت كل جهدها لتهدئتهم ووعدتهم أنهم عندما يكبرون بدرجة تمكنهم من الخروج من الملجأ الجديد، سترحب بهم ليزوروها في أسيوط.

وبرغم الألم الذي أصاب قلب ليليان لفقدانها الأطفال، إلا أنه كانت هناك لحظات من الفرح. فكثير من الأولاد الكبار (أصبح بعضهم فتية في نهاية المراهقة والبعض في بداية العشرينات) يخرجون للقرى المحيطة للوعظ بها. وبعد شهر من أخذ الأطفال زارت ليليان إحدى القرى التي تدعى قرية الشيخ صوفي، والتي لم يسبق لها أن زارتها من قبل. كان واحد من أولادها يعظ هناك وأراد نصيحتها في كيفية افتتاح مدرسة وخدمة هناك. عندما دخلت ليليان القرية لفت نظرها مبنى مهجور مكون من أربعة حوائط لكن بدون سقف. سألت شيخ القرية:"من يمتلك هذا المكان؟" أجاب الرجل: "بناه أحد الرجال منذ زمن بعيد ليصبح كنيسة، وكان يأتي واعظ من الكلية المشيخية كل أحد صباحاً. لكن توفي الرجل وتوقف الواعظ عن المجيء". سألته ليليان: "منذ متى حدث هذا الأمر". أجابها رجل آخر: "منذ سبع عشرة سنة". قالت ليليان متعجبة:"كل هذا الوقت مر والناس محرومون من كلمة الله؟". كانت ليليان فخورة جداً أن أحد أولادها جاء لهذا المكان ليعيد كلمة الله مرة أخرى لهؤلاء الناس وأن هذا المكان في انتظاره ليستخدمه، برغم أنه يحتاج بعض الترميمات.

في طريق عودتها، زارت قرية أخرى تدعى "دير بشرى"، حيث يشرف أحد أولادها على بناء مدرسة هناك. امتلأت ليليان

بفرح غامر وهي تتأمل في أن اثنين من أبنائها أصبحا كارزين. وفي هذا المساء كتبت في مذكراتها: "نأمل أن نتمكن من وضع سقف جديد للكنيسة القديمة وافتتاح مدرسة وإقامة خدمات هناك خلال هذا الصيف. كما نأمل أن يجد البنات والأولاد الصغار اليوم ما فقده آباؤهم منذ زمن بعيد مضى".

بعد أخذ الأطفال غير المسيحيين، انخفض عدد الأطفال في الملجأ للمرة الأولى على الإطلاق. ففي بداية عام ١٩٣٣ كان العدد سبعمائة طفلاً والآن وفي نهاية العام أصبح العدد ستمائة وخمسين. كانت ليليان ممتنة أنه لم يأت أطفال مكان الذين رحلوا مباشرة. حيث أنها في صراع دائم لتوفير الطعام. ومع استمرار الكساد، كان الاحتياج يزداد.

وبنهاية عام ١٩٣٣، كانت ليليان قد أنهكت ذهنياً وجسدياً بصورة كبيرة. وارتفع ضغط الدم لديها بشكل زائد. وبعد فترة من المرض استغرقت شهرين، وصلت للنقطة التي لم تستطع معها الاستمرار. وأثناء فترة مرضها، أصبح الملجأ مديناً للمرة الأولى، ورفض كثيرون من التجار توفير الطعام والمؤن للملجأ حتى لا تزداد الديون. حتى الصلاة أصبحت ثقلاً كبيراً على ليليان. فأخذت تفكر فيما يمكنها أن تقوم به.

وفي أحد الأيام وهي راكعة بجوار سريرها تبكي، وصلت

ليليان الى النتيجة التالية. يجب على الأطفال، كل الأطفال أن يرحلوا. فالبعض لديهم أقارب أو أصدقاء يمكن الذهاب إليهم، ويمكن لها أن تتوسل إلى بعض الناس أن يرعوا باقي الأطفال. قالت لنفسها إنها لا تستطيع احتمال التعب الناتج عن إدارة الملجأ يوماً واحداً آخر. فهناك العديد من الاحتياجات، ولم تعد لديها أية قدرة على الثقة في الرب.

وبتعب شديد وقفت على قدميها ونادت إحدى الفتيات : "عليا، من فضلك إجمعي كل الأطفال في الفناء واطلبي من الأرامل الانضمام إليهم. فعندي خبر أريد أن أعلنه". أجابت "عليا" بنظرة مليئة بالدهشة: "حاضر يا ماما". ثم ذهبت طائعة لتنادي الجميع.

عندما اجتمع الأطفال ووقفوا في طوابير حسب الطول، ذهبت ليليان للفناء للتحدث معهم. وفي البداية عندما فتحت فمها، لم يخرج صوتها. ثم تنحنحت وحاولت مرة أخرى. كان لابد أن يعرف الأطفال قرارها. ثم بدأت في الكلام وهي تهتز قائلة: "يا أبنائي، نحن نمر بظروف صعبة". وقف الجميع منتبهين. كانت ليليان تعلم أن الأطفال لم يسمعوا مثل هذا الكلام من قبل. لكنها أكملت حديثها قائلة: "لم يعد لدينا نقود، وعددنا كبير والجميع يحتاجون إلى الطعام. لذلك، ولأنني أحبكم جداً، لا بد أن... لا بد أن أرسلكم لأماكن أخرى. فمن له أقارب أو أصدقاء فسيذهب

إليهم، ومن ليس له أي...". انفجرت ليليان في البكاء وهي تنظر للوجوه الصغيرة التي تحبها بشدة. فكثيرون منهم ليس لديهم صديق واحد في العالم خارج الملجأ. ثم أكملت قائلة: "ومن ليس له أي أصدقاء، سوف نوجد له أصدقاء".

ومن الصدمة التي سببتها كلمات ليليان ظل الأطفال والأرامل في صمت تام. ثم حاولت تخفيف وقع الكلمات فقالت: " أطفالي الأعزاء، سأعيدكم جميعاً بمجرد أن يسدد الرب احتياجاتنا".

بعد أن أدرك الأطفال ما قالته أمهم، انفجروا في البكاء، بهدوء في البداية لكن سرعان ما تحول إلى نحيب. فقدت ليليان قدرتها على الكلام وأخذت تبكي معهم. وفجأة ركع أحد الأطفال الصغار على ركبتيه في نهاية الفناء وأخذ يصرخ بأعلى صوته قائلاً: "يارب، يارب". استطاعت ليليان أن تميز ما يقوله برغم أنها تقف في المقدمة. أخذ يقول: "يارب، لن أفعل أي شيء خطأ مرة أخرى. لكن أرجوك دعني أبقى هنا، أرجوك أرجوك". ثم ركع طفل آخر على ركبتيه ثم ثالث فرابع. وفي خلال دقيقة كان كل الأطفال راكعين مصلين. كان من الصعب على ليليان احتمال رؤيتهم في هذا الوضع. فقد كانوا جميعاً يفعلون تماماً ما سبق وفعلته من قبل عدة مرات عندما تزداد الاحتياجات. وبينما هم يبكون ويصلون، تساءلت ليليان عما يمكنها أن تفعله. فلم

تكن متأكدة. لذلك ركعت هي أيضاً وأخذت تصلي قائلة: "يارب ماذا يمكنني أن أفعل الآن؟".

وبعد عدة دقائق غمرها هدوء شديد. وأصبحت تعلم الآن ما يجب أن تفعله. وبعزيمة متجددة وقفت على قدميها وأشارت للأطفال أن يسكتوا. ثم اعترفت قائلة: "لا يمكنني إرسالكم بعيداً، فنحن جميعاً عائلة واحدة. وسنعيش الحياة بحلوها ومرها معاً. إننا نحتاج إلى مواصلة الصلاة حتى يسدد الله احتياجاتنا. فربما من الأفضل أن تعرفوا أنتم أيضاً أننا نحيا بالإيمان، وأن الله يسدد احتياجاتنا إذا طلبنا منه ذلك".

أخذت ليليان تراقب الأطفال وهم يرقصون ويعانقون بعضهم البعض ويهتفون قائلين: "لن نرحل!. فالله يسدد احتياجاتنا".

ذهبت ليليان للمطبخ لترى ما تبقى لديهم من الطعام. ورفضت أن تترك روحها تتكسر عندما علمت أنه لا يوجد سوى أرغفة قليلة من الخبز وبعض الأرز القليل. قالت للأرملة التي تقوم بالطهي : "أطبخي الأرز مع كثير من الماء يا ميّ، واقسمي كل رغيف من الخبز أربعة أقسام. حتى يحصل كل طفل على قليل من الأرز مع بعض الماء الذي طُبخ فيه وقطعة خبز. والرضع يمكنهم شرب لبن من إحدى الأبقار".

سألت ميّ: "وماذا عنك يا ماما؟". هزت ليليان رأسها وقالت:

"سوف أكون على مايرام. قدمي الطعام للأطفال." أكملت ميّ حديثها قائلة: "لكنك لم تأكلي منذ صباح الأمس". نظرت ليليان بعيداً. كيف يمكنها أن تأكل والأطفال جائعين؟ قالت: "لا تقلقي، كل ما أتمناه هو أن تستجاب صلاة الأطفال وغداً يكون أفضل".

* * * * * * * * * *

الفصل الخامس عشر

آبار في الصحراء

استيقظت ليليان في الصباح وداخلها شعور بالفزع. فلم يكن هناك طعام أو نقود في الملجأ. وبرغم أنها أخبرت الأطفال أنه يمكنهم البقاء، لكنها تفتقد قوة التمسك بإيمانها في مثل هذه الظروف. فذهبت للقيام بأعمالها اليومية وهي لا تعلم ما يمكنها عمله. وعند وقت الغذاء لم يكن هناك طعام قد وصل. فأرسلت أحد الأولاد لمكتب البريد في أسيوط .

تجمع كل الأطفال ومعهم ليليان على البوابة منتظرين عودة الصبي. فلا فائدة من التظاهر بأنها لا تحتاج إلى خطاب يحتوى على نقود. وعندما عاد الصبي سلمها الخطابات. مرت ليليان سريعاً على الفواتير المعتادة حتى وجدت خطاباً شخصياً من الولايات المتحدة. وبيد مرتعشة فتحته، ثم صرخت بعد لحظات قائلة: "شكراً لك يا رب!. يا أولاد، قد استجيبت صلاتكم". فسألها الجميع: "ماذا وجدت يا ماما؟". كانت ليليان تحمل شيكاً بألف دولار. وبعد أن هدأت إثارتها، نظرت للظرف لترى من أرسل الشيك. انتابتها قشعريرة وهي تقرأ العنوان على الظرف: الآنسة ليليان تراشر، أسيوط، الهند. فحصت خاتم البريد فوجدت أن

الجواب مرسل إلى مصر مباشرة برغم أن العنوان كان الهند. كيف حدث هذا؟. هذا يعني أمراً واحداً؛ أن أحدهم في مكتب البريد في ولاية كانساس، حيث أُرسل الخطاب، قرأ العنوان، ويعلم أن ليليان في مصر، وبالتالي وضع الخطاب مع بقية الخطابات المتجهة إلى مصر. قالت ليليان لنفسها: "يا له من أمر مدهش! فالله أمين، وبصفة خاصة أننا نحتاج إلى هذا الخطاب اليوم وليس غداً ".

بعد الظهر كان الأطفال في غاية السعادة عندما أحضرت ليليان أجولة من القمح والفول والبصل والأرز للملجأ. واشترت عجلاً صغيراً. أكل الجميع في الملجأ هذه الليلة أكلاً فاخراً. كانت ليليان تعلم بالطبع أن الألف دولار تكفي لثلاثة أيام فقط، وربما خمسة. فتصرفت بحرص وتوقفت عن شراء بعض الضروريات. لكنها تكفي الآن. فمرور ثلاثة أيام بلا أزمات يعد رفاهية لذهن ليليان المُتعَب.

بدأت الأموال تتدفق. فقد أرسل لورد ماكلاي شيكاً بمبلغ خمسمائة جنيهاً، وتبرعت سيدة من جنوب أفريقيا بنصف راتبها الشهري، وأرسلت سيدة مصرية خمسة دولارات لشراء فاكهة للأطفال، وأعطى موظف بمكتب البريد راتبه الأسبوعي لليليان. وهكذا بطريقـــة أو بأخرى، كان الطعام يتوفر للأطفال، وبالتالي

اختفت فكرة إبعادهم عن الملجأ.

وبرغم تعب ليليان، لم تعد منزعجة ومضطربة، وأصبحت أكثر شجاعة في أن تسأل أعضاء كنيسة جماعة الله في الولايات المتحدة للصلاة من أجل احتياجات محددة. وفي نوفمبر عام ١٩٣٥ جلست لتكتب خطاباً لهم :

> كم أحتاج إلى صلواتكم. فهؤلاء الأطفال مثل أي أطفال آخرين. بعضهم مريض وبعضهم سليم. البعض يسهل عليه تدبير أموره، بينما آخرون يسببون لي كثيراً من التعب والصداع. لكن الجميع يحتاجون لمن يعلمهم ويهتم بهم. إن أي أم صالحة في أمريكا تعتقد أن الأمر فوق طاقتها عندما يكون لديها أربعة أو خمسة أطفال تعتني بهم، مع وجود الأب الذي يهتم بالأمور المالية. لكن بالنسبة لي فعندي حوالي ألف طفل ويجب أن أقوم بدور الأم والأب معاً لكل هؤلاء الأطفال. وأيضاً عليّ أن أكتب مئات الخطابات أسبوعياً. ثم أشرف على كل العمل. كم أحب عملي وأشكر الله لأنه اختارني ولم يختر شخصاً آخر لهذا العمل، لكنني متعبة وأطلب صلواتكم.

(أخبرتهم ليليان أيضاً عن ملجأ إيمان آخر).

أحد الأولاد الذين ربيتهم منذ أن كان عمره ستة أشهر يبلغ الآن ثلاثة وعشرين عاماً. والآن قد ذهب ليساعد السيد ميخائيل صليب في مدينة سوهاج. فالسيد ميخائيل كان يعمل مدرساً في ملجأنا. ومنذ ست سنوات دعاه الله ليؤسس ملجأ في مدينة سوهاج، ملجأ إيمان. إنه أمر رائع أن يبارك الله هذا الملجأ. والآن أصبح لديه سبعون طفلاً ومبنى ممتاز جداً، وهو الرجل المصري الوحيد الذي لديه ملجأ إيمان في مصر كلها.

وبينما كانت ليليان تكتب هذا الخطاب، فكرت أن حياتها حلقة في سلسلة حلقات. فمنذ ثلاثين سنة وهي شابة ذهبت لتساعد "ماتي بيري" في ملجأ الإيمان الخاص بها في نورث كارولينا. ثم أنشأت هي ملجأها الخاص في مصر، والآن واحد من أبنائها ذهب ليساعد في ملجأ إيمان آخر.

وفي العام التالي شعرت ليليان مرة أخرى أنها حلقة في سلسلة الحلقات التي يربطها الله معاً حول العالم. وفي هذه المرة كان في ملجأ في اسكتلندا. فقد ظل اللورد ماكلاي على اتصال بليليان لعدة سنوات. وفي فبراير ١٩٣٦ أرسل لها برقية يخبرها

أنه وابنته سيزوران القاهرة زيارة سريعة الشهر التالي، ولن يكون لديه الوقت الكافي لزيارتها في أسيوط . وطلب منها أن تأتي لزيارته في القاهرة لو أمكن. استعدت ليليان لمقابلته.

رتب لورد ماكلاي إقامة ليليان في أحد الفنادق بالقاهرة، واجتمع ثلاثتهم معاً على العشاء. أحضرت ليليان معها بعض صور الأطفال الذين رآهم لورد ماكلاي في زيارته السابقة. أخذ يتفحصهم بتمعن، ثم قال لها: "آنسة ليليان، أنت لا تعرفين كيف أثرت فيَّ رؤيتي لما تقومين به. فبعد زيارتي لملجأك، عدت إلى اسكتلندا وهناك افتتحت بيتاً للأطفال الصغار، والآن أصبح يقيم فيه ثلاثون طفلاً رضيعاً". طفر قلبها من الفرح. فياله أمر مدهش ورائع ؛ ثلاثون رضيعاً في اسكتلندا يعيشون في أمان ويلقون الرعاية كنتيجة لما تقوم به في مصر.

لم يكن لورد ماكلاي قد انتهى من كلامه، لذلك أكمل قائلاً: ليليان هل هناك ما يحتاج إليه ملجأك بشدة ؟. فكرت ليليان للحظة. إنهم يحتاجون إلى أشياء كثيرة، لكن ما أهم شيء؟. لقد حل الشتاء، والجميع يحتاجون إلى ملابس شتوية جديدة، لكن لا يوجد ما يكفي من النقود لذلك. أجابت ليليان: "نحتاج إلى أقمشة لعمل ملابس شتوية". ثم سأل لورد ماكلاي:"هل يوجد شيء آخر؟" قالت ليليان: "نحتاج أيضاً إلى أبقار ولحوم وسلع غذائية

أخرى". قال لورد ماكلاي: " في هذه الحالة سأعطيكي خمسة آلاف جنيهاً ". سمعت ليليان كلمة "خمسة آلاف جنيهاً" وبسرعة أخذت تترجمها إلى أشياء كثيرة : أقمشة، أجولة بصل وفول ولحوم بقرية ودقيق. أمكنها أن تتخيل المخزن ممتلئاً عن آخره والأطفال لابسين ملابس جديدة لعيد الميلاد.

قطع صوت لورد ماكلاي أفكارها : "سأعطيكي هذه النقود بشرط واحد. أن تأخذي بعضاً من هذا المال لنفسك. فبالتأكيد لديك أنت أيضاً بعض الاحتياجات". فتحت ليليان فمها لتتكلم لكن لم تستطع أن تنطق، ثم بدأت في البكاء. كانت تتمنى أن تجد الكلمات المناسبة التي تشكر بها لورد ماكلاي على طيبة قلبه.

بعد مرور ساعة، كان لورد ماكلاي وابنته على متن الباخرة متجهين إلى اسكتلندا، وليليان في طريقها للملجأ. وفي الطريق توقفت في أسيوط لشراء عِجل حتى يتمكن الجميع من الاحتفال. لما عادت فرحت برؤية الأطفال يأكلون الكميات التي يريدونها.

في صباح اليوم التالي، كان صبي التلغرافات يقف على الباب. أعطى ليليان قطعة من الورق، قرأتها ثلاث مرات. ثم ركعت على ركبتيها وأخذت تبكي. فإن هذا كثير جداً. فلقد تبرع لورد ماكلاي للملجأ بعشرين ألف جنيهاً أخرى. وكان المال في انتظار ليليان لتتسلمه من البنك في أسيوط. والآن أصبح لديهم

طعام ونقود لأيام كثيرة قادمة. أخذت ليليان وقتاً لتستريح. فقد أصر أحد الأطباء أن تجري فحوصاً كاملة في المستشفى. ولم تندهش ليليان عندما عرفت أن قلبها ضعيفاً وأن ضغط الدم مرتفع، حيث أنها تعاني من ألم في صدرها وصداع لعدة أشهر. ولم يكن هناك أدوية لمثل حالتها لكن كل ما كان يجب أن تفعله هو أن تأخذ بعض الراحة الكافية، وهو أمر يعتبر مستحيلاً لمن لديه مثل مسئولياتها الكثيرة.

وبينما كانت ترقد في المستشفى، أخذت تفكر في الضريبة التي دفعتها من جسدها لتكون أمّاً لكل هذا العدد من الأيتام. لم يكن لديها أي شعور بالشفقة على النفس. فهي تعلم أنها كانت ستعطي أكثر لو كان في إمكانها ذلك.

مسيرة إيمانها في مصر ذكّرتها بالقصة الأسطورية التي كان يدرسها الأطفال المصريون في المدرسة. وهي عن صبي كان عليه أن يعبر صحراء واسعة، ولم يكن هناك أماكن للماء في الطريق. فكلما احتاج أن يشرب، كان يقف ويحفر بئراً بيديه العاريتين. وبعد أن حفر العديد من هذه الآبار، جرحت يداه وصارتا تنزفان، لكنه أكمل طريقه. وفي النهاية وصل للجهة الأخرى، وكانت قواه قد استنفدت بالكامل. وبعد مرور شهر من الزمان، كان هذا الصبي واقفاً يراقب صبياً آخر وصل للتو من

رحلته عبر الصحراء. كان الصبي الثاني قد سار في نفس الطريق الذي سار فيه الصبي الأول، لكنه كان سعيداً مبتهجاً، وكان يقفز فرحاً وفي يده باقة كبيرة من الزهور. فسأله الصبي الأول: "كيف عبرت الصحراء وتبدو عليك السعادة؟. ومن أين أمكنك الحصول على هذه الزهور؟. لم أر أياً منها في طريقي من شهرٍ مضى". أجاب الصبي الثاني: "كان الطريق ممتعاً جداً. وهناك العديد من الآبار الممتلئة بالماء البارد بطول الطريق، وحول كل بئر هناك زهور وظلال أشجار صغيرة. كان من السهل عليّ أن أعبر الصحراء. ألم تر هذه الأشياء؟". أخذ الطفل الأول ينظر ليديه المجروحتين وابتسم. كان يعلم أن معاناته الخاصة جعلت الصحراء مكاناً يسهل عبوره لمن تبعوه.

كانت ليليان مثل الصبي الأول في هذه القصة، مقتنعة أن الله قد دعاها لتحفر آباراً في الصحراء حتى ما ينبت حولها العديد من الزهور الجميلة كنتيجة لتعبها.

خرجت ليليان من المستشفى وعادت لحياتها الممتلئة بالعمل في الملجأ. ساعدت كثيراً من الشباب لإنشاء متاجر للبقالة في أسيوط. أصبحت المتاجر ناجحة ووفرت لهم دخلاً جيداً.

أمور رائعة أخرى حدثت. فقد كانت ليليان تسكن في كوخ خشبي مبني خصيصاً لها، يقع جنوب مباني الملجأ الأخرى.

وبجوار هذا الكوخ هناك كوخ آخر، يسمى "بيت الرضع" أحضرت فيه خمسة وعشرين رضيعاً ضعيفاً يحتاجون للرعاية وهي تعتني بهم بنفسها. كان الرضع ينامون ويجلسون ويزحفون في حديقتهم الجميلة التي زرعتها ليليان بنفسها.

فرح الأطفال الأكبر سناً بإضافة حمام سباحة للملجأ. فقد كان هناك موتور لسحب المياه يستخدم في ضخ المياه لري حديقة الخضروات. فقررت ليليان استخدامه لملء حمام سباحة أيضاً. فبدأت في رسم الخرائط الهندسية، كان الماء يُضخ أولاً في أحد أطراف حمام السباحة ثم يُضخ من الطرف الآخر منه إلى حديقة الخضروات. ولأن الماء دائم الجريان، كان حمام السباحة نظيفاً وآمناً للسباحة فيه. وبدأت حملة لتعليم الأولاد السباحة حتى أجاد بعضهم السباحة ونافس في بطولاتها.

وفي يوم ٢٧ سبتمبر من عام ١٩٣٧، احتفلت ليليان تراشر بعيد ميلادها الخمسين. كان الملجأ في هذا الوقت يرعى أكثر من سبعمائة طفلاً. وبالتالي كانت الاحتياجات أكثر من أي وقت مضى. كانت وجبة واحدة من الطماطم والكرنب تحتاج مائة وخمسين كيلوجراماً من الطماطم ومائة كيلوجراماً من الكرنب. فأقل شيء تضاعفه سبعمائة مرة يكلف مالاً كثيراً. فلكي تعطي لكل طفل مشطاً ثمنه ١٠ سنت، وقطعة صابون ثمنها ٥ سنت،

ومنشفة ثمنها ٢٥ سنت، يصبح المبلغ الإجمالي ٢٨٠ دولاراً.

في عام ١٩٣٨ ذهب صحفي أمريكي معروف في رحلة حول العالم ليبحث عن الأمريكيين الذين يعيشون عبر البحار ويكتب عن أنشطتهم وأعمالهم التي يقومون بها. وفي ربيع عام ١٩٣٨ رحبت ليليان بالصحفي في الملجأ. مكث الرجل لمدة أسبوع، وقام بإجراء حوار مع الأرامل، وأخذ يلعب مع الأطفال، ويسجل ملحوظاته. قضت ليليان وقتاً طويلاً معه تجيب على كل أسئلته. اعتقدت ليليان أنه رحل بانطباع جيد عن العمل في الملجأ. ولم يكن لديها أية فكرة عن مقدار إعجابه وانبهاره بالملجأ. ففي عام ١٩٣٩ ظهرت مقالة في مجلة "ريدرز دايجست" عنوانها "أم النيل"، تقول العبارة الافتتاحية فيها: "مصر هي بلد العجائب، لكن أعظم هذه العجائب جميعاً هي الآنسة ليليان تراشر". وتحدثت المقالة عن عمل ليليان بأكثر العبارات الممكنة إبهاراً.

كانت نتائج نشر هذا المقال مذهلة. فكثير من الناس ممن لا تعرفهم ليليان أرسلوا التبرعات للملجأ. وأصبح تقريباً كل المسافرين بالبواخر النيلية متشوقين لرؤية أم النيل المشهورة وملجأها. تسبب اللقب الجديد "أعظم العجائب المصرية" في إحراج ليليان. لكنها كانت سعيدة للنتائج التي أحرزتها المقالة.

مع استمرار العمل في الملجأ، ازداد الجو العام في مصر تحولاً ضد الخدام المسيحيين. ففرضت الحكومة الضرائب على كل الواردات للكنائس والأعمال الخيرية. ولو كانت الضرائب هي مجرد مبالغ صغيرة لكان الأمر مقبولاً، لكن أرادت الحكومة أن يدفع لها من يتلقى هذه الواردات ضرائباً تبلغ قيمتها نفس قيمة هذه الواردات فأصبح الحصول على الملابس والمستلزمات المدرسية ولعب الأطفال من الخارج أمر غير نافع . وكان على ليليان أن تكتب للسيدات الأمينات في مجلس الكرازة النسائية لتخبرهم أن يتوقفوا عن حياكة الملابس للأطفال.

وبانتهاء العقد الرابع من العام، بدأت سحب الحرب تلوح في الأفق. وفي النهاية اندلعت الحرب العالمية الثانية. ألمانيا وإيطاليا حليفتها في المحور تتطلعان إلى السيطرة على قناة السويس. ففي سبتمبر من عام ١٩٤٠ احتلت إيطاليا بمئتي ألف جندي الجهة الغربية من مصر عن طريق ليبيا واستطاعت أن تتحصن في سيدي براني على بعد ثلاثمائة ميل من الإسكندرية. وكما حدث من قبل، صدر أمر لكل المواطنين الأمريكيين والإنجليز بمغادرة مصر. لكن هذه المرة رفضت ليليان الرحيل رفضاً قاطعاً. فهي الآن تبلغ من العمر ثلاثة وخمسين عاماً وقد قضت في مصر وقتاً أطول من الذي قضته في الولايات

المتحدة، وأصبحت الآن تشعر أنها مصرية. ولحسن الحظ لم يأت أحد هذه المرة ليجبرها على الرحيل. لكن كان على الملجأ أن يواجه نفس الصعوبات التي واجهها أثناء الحرب العالمية الأولى.

* * * * * * * * * *

الفصل السادس عشر

سفينة إمدادات

في عام ١٩٤١ ابتعد الحلفاء عن مصر. فقد خسر الإيطاليون المعركة وتراجعوا نحو ليبيا. ونتيجة للحرب ارتفعت أسعار كثير من السلع كالكتب المدرسية، التي ارتفع سعرها ثلاثة أضعاف عما كانت عليه قبل الحرب. بينما أشياء أخرى مثل إطارات السيارات أصبحت تقريباً غير متوفرة.

في هذا الوقت كان الملجأ يضم تسعمائة طفلاً، وكان الاحتياج للطعام والملابس مستمراً. وفي سبتمبر ١٩٤١ أصبح كثير من ملابس الأطفال بالية وكان كل طفل يأكل في الغداء نصف كوب من العدس. عملت ليليان كل ما في إمكانها لتوفير المال للملجأ، لكن الأمر ميئوس منه. فكل شخص في مصر يعاني.

وفي أحد الأيام في وقت العشاء، أعلنت تأجيل كل الواجبات المدرسية والمشغوليات الأخرى لمدة أربع وعشرين ساعة حتى يتفرغ الجميع للصلاة من أجل الموقف. وأثناء زيارتها لأماكن نوم البنات هذا المساء، تأثرت كثيراً بحرارة الصلاة لديهن. وسمعت ليليان إحدى البنات الصغار تصلي بصوت أعلى من الجميع. كان اسمها "فيجا" لم تكن جميلة وشعرها محلوق

بالموسى لإصابتها بمرض جلدي، لكن عندما رفعت صوتها في الصلاة، شعرت ليليان أنه أجمل صوت سمعته في حياتها. كانت تقول: "يارب لقد قلت إنه حينما يتركنا آباؤنا وأمهاتنا، فسوف تهتم أنت بنا. نحتاج إليك أن تسدد احتياجاتنا الآن. لأن ماما قالت إنه لا يمكن لأحد غيرك أن يساعدنا". خرجت ليليان على أطراف أصابعها والدموع تملأ عينيها. وقالت لنفسها: "بالتأكيد، فيجا على حق. فإن لم يقم الله بمعجزة فسوف نموت جوعاً".

استطاعت ليليان أن تنام لفترة قصيرة هذه الليلة. ظل الأطفال يصلون حتى الساعة الثانية والنصف صباحاً، واستمرت ليليان هي وبعض العاملين بالملجأ في الصلاة لوقت أطول من هذا. وفي الصباح وصلت برقية تقول:" آنسة ليليان. من فضلك زورينا غداً على الغذاء. السفير كيرك". أخذت ليليان تنظر للبرقية وتتساءل: لماذا يطلب سفير أمريكا في مصر أن يراها في برقية قصيرة هكذا؟. لم تستطع ليليان أن تتوصل لأي أسباب. كانت تتمنى فقط أن يكون الأمر له علاقة بصلوات الأرامل والأطفال. فتركت المسئولية لمساعدتها، وسافرت في قطار منتصف الليل متجهة للقاهرة. وصلت إلى مكان إقامة السفير في الثانية عشر ظهراً فطلبت فوراً مقابلته. حياها الشريف ألكسندر كيرك بحرارة، وجلس الاثنان معاً لتناول

الغذاء والحديث . بدأ السفير بالكلام قائلاً: "عندي أمر هام أريد أن أخبرك به. أنت تعلمين بالتأكيد أن اليونان قد سقطت لتوها في يد الألمان". أجابت ليليان وهي متحيرة في علاقة اليونان بموقفها: "نعم قرأت هذا". أكمل السفير حديثه قائلاً: "الأسبوع الماضي كانت هناك سفينة تابعة لهيئة الصليب الأحمر تدعى (كاساندرا لولوديس) محملة بمواد إغاثة تقف بالقرب من مدينة بيريوس باليونان وعندما وصل نبأ سقوط اليونان، تلقت السفينة الأوامر بالعودة إلى الإسكندرية لتنتظر الأوامر للخطوة التالية. وخوفاً من أن يتم مهاجمة السفينة وهي منتظرة في ميناء الإسكندرية، أعطيت لها الأوامر أن تلقي حمولتها في البحر وتغادر في الظلام. لكن أحد البحارة الأسكتلنديين توسل لكابتن السفينة لكي يفرغ الحمولة في الميناء بدلاً من إلقائها في البحر وأخبر الكابتن عن ملجأك. والواضح أن البحار قد تبرع بمبالغ مالية من قبل لملجأك وأن والدته تصلي يومياً من أجل أيتام ملجأك. في البداية قاوم الكابتن الفكرة وكان يرغب في التحرك بسرعة. لكن البحار صمم مؤكداً للكابتن أن السفينة يمكن أن تفرغ الحمولة وتتحرك من الميناء قبل شروق الشمس. وفي النهاية تنازل الكابتن عن رأيه. وبسرعة تم إفراغ حمولة السفينة. وكل المواد موجودة الآن في مخزن بقرب الميناء في

الإسكندرية. أخبريني يا آنسة تراشر، هل لديك احتياج للطعام والملابس في هذا الوقت ؟".

تركت ليليان شهقة تخرج من فمها. هل عرض عليها السفير للتو سفينة ممتلئة بالإمدادات؟. كان عليها أن تتأكد فلذلك سألته: "ماذا تقول؟". ابتسم السفير وقال: "أعتقد أنك تحتاجين لهذه الإمدادات. بعد انتهاء الغذاء مباشرةً سآخذك للإسكندرية لنراها".

كانت ليليان تتمنى لو أمكنها ترك الطعام والذهاب فوراً. فالإمدادات في انتظارها. وهي لا تطيق الانتظار لمعرفة ماذا يوجد في المخزن. بعد مرور ساعتين كانت ليليان والسفير كيرك وممثل منظمة الصليب الأحمر واقفين جنباً إلى جنب يشاهدون صناديق الإمدادات. كانت الصناديق كثيرة لدرجة أنها لم تستطع رؤيتها جميعاً. سألت ليليان بذهول: "كم تبلغ هذه الكميات؟". سحب ممثل الصليب الأحمر بعض الأوراق وأخذ يقرأ: "٢٦٠٠ فستان، ١٩٠٠ معطف صناعة يدوية، ١٩٠٠ بنطلون، ٣٨٠٠ بطانية، ١١٠٠٠ منشفة، ٧٠٠ برميل لبن بودرة، ١٢٠٠ جوال أرز ... ". لم تستطع أن تسمع أرقاماً أخرى، فقد انفجرت في البكاء.

وبعد أن تمالكت نفسها، أكمل مسئول الصليب الأحمر الجرد وسأل ليليان عما تحتاجه من هذه الأشياء. شعرت ليليان بوخزة

في معدتها. فمن الرائع لو أمكنها أن تأخذ كل شيء، لكن لم يكن معها نقود في الملجأ. كيف يمكنها شحن هذه الأشياء لأسيوط ؟. قطع السفير كيرك تفكيرها وقال: "آنسة تراشر، إنه امتياز لي أن أدفع تكاليف النقل. سنشحن الإمدادات الضرورية فوق عربات النقل فوراً، والباقي يمكن إرساله بالقطار. ما رأيك في هذا؟". مسحت ليليان دموعها وابتسمت قائلة: "شكراً لك".

ركبت ليليان القطار في تلك الليلة متجهة إلى أسيوط، لكن لم يكن هناك وجه مقارنة بين حالتها الآن وحالتها بالأمس. وقد أمكنها بصعوبة الانتظار حتى تخبر الأطفال أن صلواتهم قد استجيبت بطريقة عجيبة وأن شحنة الإمدادات في طريقها إليهم. وفي صباح يوم الجمعة جمعت ليليان الجميع وقالت لهم الخبر العظيم. ولم ينتهوا من التهليل حتى وصلت قافلة النقل أمام بوابة الملجأ. ازداد التهليل وبدأ مئات الأطفال في حمل الصناديق والحقائب والبراميل. كان موكباً لا نهائي من عربات النقل.

قبل الغذاء كانوا قد انتهوا من تفريغ كل عربات النقل. ووقف الأطفال ينتظرون فتح الصناديق. وقبل أن تفتح أول صندوق أخذت تصلي شاكرة الله لاستجابته العظيمة. ثم فتحت أول صندوق. كان ممتلئاً بالفساتين. فأعطت تعليماتها قائلة: "لتأخذ كل بنت فستاناً واحداً. وبعد ذلك سيكون هناك ما يكفي لتأخذ كل

بنت فستاناً ثانياً".

ظلت ليليان ومعها الأرامل يوزعن الملابس ويضعن الطعام في المطبخ طوال فترة بعد الظهيرة وحتى المساء. فكم كان الأمر رائعاً أن ترى الأطفال مزهوين بملابسهم الملونة الجديدة. وتعتبر هذه الإمدادات واحدة من أفضل الأمور التي حدثت أثناء الحرب وظلت ليليان تشكر الله عليها لفترة طويلة. وفي الحقيقة بقدوم عام ١٩٤٥ وانتهاء الحرب العالمية الثانية، كان معظم الأطفال لا يزالون يرتدون الملابس التي أحضرتها سفينة (كاساندرا لولوديس).

ازداد عدد الأطفال أثناء فترة الحرب، لكن مع انتهائها، كانت ليليان واثقة أن الأيام القادمة ستكون أفضل. حتى جاء شهر سبتمبر ١٩٤٧ إذ حل على مصر رعب جديد هو وباء الكوليرا.

أصاب الوباء المدن الكبرى أولاً، فمات الآلاف خلال أسبوع في الإسكندرية والقاهرة. وببطء تسرب الوباء إلى القرى فقضى على آلاف أخرى من الناس. كان الموت يداهم الضحايا خلال ساعات من معرفتهم بإصابتهم بالمرض. أسر كاملة كانت تبدو في صحة جيدة في الصباح، فتلقى حتفها وتدفن في صباح اليوم التالي. أمرت الحكومة بإغلاق جميع المدارس، ماعدا مدرسة ليليان. حيث أن الأطفال يعيشون معاً، واتصالهم معاً حتمي

سواء ذهبوا للمدرسة أم لا. رفضت ليليان التفكير فيما سيحدث لو أصيب أحد أطفالها بالوباء. حيث أن وجود أطفال كثيرين في مساحات صغيرة، سيجعل المرض ينتشر مثل النار في الهشيم. ومع ظهور التقارير باقتراب الوباء من أسيوط، أخذت تصلي بلا انقطاع حتى لا يجد الوباء طريقة داخل أسوار الملجأ. طلبت الحكومة من الناس ألا يختلطوا بالآخرين طويلاً وهذا مستحيل في الملجأ، فتدفق الزوار والباعة والمساعدين للملجأ لا ينقطع.

لكن كان على ليليان أن تفكر في كيفية تقليل حلقات الاتصال بهذا المرض المميت بقدر الإمكان. ففكرت ألا تقبل أطفالاً جدداً في الملجأ حتى يتم التغلب على الوباء. وهي فكرة رائعة من وجهة النظر الطبية. لكن فكرة رفض قبول أي طفل ضايقت ليليان. فهذا الأمر لم يقم به الملجأ من قبل، حتى في فترة الكساد الكبير الذي مرت به مصر. لكنها لا تعرف ماذا يجب أن تفعل.

في أحد أيام السبوت من شهر أكتوبر كانت ليليان في طريق عودتها من أسيوط عندما لاحظت جندياً يحرس أحد المنازل. قفز قلبها عندما رأت أن بوابة ذلك المنزل مرسوم عليها دائرة بيضاء إشارة إلى إصابة أهل المنزل بالكوليرا. فهذا يعني أن الوباء قد وصل إلى أسيوط. وفي فزع شديد قادت ليليان سيارتها بأقصى سرعة وأغلقت بوابات الملجأ خلفها.

وفي ذلك المساء قرأت في الكتاب المقدس قصة موسى مع فرعون والضربات العشر، والآية المتكررة عن منع الضربات في محلة شعب الرب. فصلت ليليان قائلة: "سآخذ هذا كوعد منك يارب. حتى لو كانت الكوليرا حولنا فإنني أثق أنك تحفظ جميع الأطفال سالمين. ولن أرفض طفلاً يحتاج إلى مأوى، حتى لو أتوا به من المناطق المصابة بالكوليرا".

بعد ثلاثة أيام وقعت كارثة أخرى، لكن ليس لها أية علاقة بالكوليرا. حدث هذا في منتصف الليل، بعد أن دخلت ليليان إلى فراشها بعد يوم من أيامها الشاقة المعتادة. وكانت قد بدأت في النوم عندما لاحظت ضوءاً ساطعاً في حجرة نومها. فكرت في نفسها: "إنه أمر غريب، هناك شيء ما يسبب هذا الضوء". لكنها كانت شبه نائمة ولذلك لم تتساءل ما هو هذا الشيء. لكن بعد عشر دقائق استيقظت على صوت جرس المدرسة. وملأ الضوء البرتقالي حجرتها. خرجت مسرعة باتجاه النافذة وأخذت تصرخ. فقد كان مبنى النوم الخاص بالأولاد يحترق.

علت ألسنة النيران بارتفاع ثلاثة طوابق في الهواء. أسرعت ليليان للتليفون لتتصل بإدارة المطافىء. ثم ارتدت عباءتها وحذاءها وركضت متجهة للمبنى الذي يحترق. كان ذهنها يعمل بشدة، لكي لا تفقد أي طفل. كان الأولاد الكبار يقفون خارجاً

يراقبون اللهب، فأسرعت نحوهم، بينما حاول مينا مساعدها تهدئتهم. صاحت تسأل مينا:"ماذا حدث للأولاد الصغار؟. يجب أن ندخل وننقذهم" ملأ الفزع ليليان وهي تركض نحو المبنى المشتعل. وكانت على وشك أن تصل حين أمسك مينا بذراعها وصاح قائلاً: "يا ماما، كل شيء على مايرام. إنهم أربعون طفلاً في المبنى، وجميعهم بالخارج في الفناء الغربي". سألته ليليان: "هل أنت واثق؟. متأكد تماماً؟". أجاب مينا: "نعم يا ماما. فقد أحصيتهم بنفسي. فقد طبقوا تدريبات الطوارىء كما تعلموها".

بدأ الإحساس بالراحة يغمر جسد ليليان. فالمبنى يمكن تعويضه، أما أي طفل فلا يمكن أن يقدر بثمن. نظرت ليليان باتجاه الجسر منتظرة وصول عربة المطافىء من أسيوط. ثم فجأة تذكرت ليليان المائة والخمسين دلواً التي اشترتها بسعر منخفض من الجيش. ركضت إلى المخزن وأمرت أحد الأولاد أن يكسر الباب. ثم صرخت وهي ممسكة بالدلاء: "بسرعة. شكلوا طابوراً بداية من مضخة الماء إلى المبنى".

انضمت مئات من الأيادي، وفي خلال عشرين دقيقة أصبحت النيران تحت السيطرة. لكن عندما بدأت بعض ألسنة النار تلحس حوائط المطبخ صاحت ليليان للأولاد الذين في رأس الطابور قائلة: "إلى المطبخ". أدركت ليليان أن براميل الكيروسين التي

تستخدم في تسخين الماء موجودة في المطبخ. وإذا وصلت النيران لها فسيحدث انفجار شديد سيتسبب في مقتل بعضهم. وبشكل مذعور أخذت تنظر للطريق آملة أن تصل عربات المطافىء، لكن الطريق كان خالياً. فعادت تنظر للنيران. كانت أجساد الأولاد من قمة رؤوسهم إلى باطن أقدامهم مغطاة باللون الأسود. وقد بدأوا يتعبون من محاولة إطفاء النيران. لكن مع كل دقيقة تمر كانت النيران تزداد اشتعالاً. ركعت ليليان على ركبتيها فزعة وأخذت تتوسل إلى الله : "افعل شيئاً يارب، فبراميل الكيروسين داخل المطبخ. افعل شيئاً".

ظلت ليليان على ركبتيها لدقيقة أو دقيقتين تنظر إلى اللهيب. تعجبت قائلة: "لقد تمكنوا من فعلها. النيران بدأت تنطفىء". وكانت واثقة أن النيران خمدت، تاركة المطبخ بدون أذى. وبعد لحظات وصلت سيارة الإطفاء. أحاط الرجال بالمبنى وتأكدوا من أن النيران قد أخمدت تماماً. وعندما حلت ساعات اليوم الجديد كانت عربة الإسعاف قد وصلت من أسيوط لنقل الضحايا إلى المستشفى. لم يصدق قائد عربة الإسعاف عندما علم أنه لم يصب أي شخص بأذى بسبب الحريق.

عندما اكتمل شروق الشمس، أخذت ليليان ومينا يختبران براميل الكيروسين فقد كانا في غاية القلق عليها. فوجدا أن

النيران لم تلمسها. ثم أخذا يتفحصان الحائط. احترق الحائط من الخارج بالنيران. وكان هناك نافذة في الحائط مسدودة بلفافات الجرائد حتى تمنع الهواء البارد من الدخول. أخذت ليليان تنظر للنافذة وهي تكاد لا تصدق. فاستطاعت أن ترى علامات الحريق قد لحست كل الحائط وتوقفت عند النافذة. قالت لمينا: "يا له من أمر غير معقول. لقد رأيت اللهيب يزحف على الحائط، وهذا ما جعلني أركع على ركبتي وأصلي. فلابد أنه في هذا اللحظة توقف اللهيب، وإلا لكان قد أكل الجرائد وانتشر في الداخل ليصل إلى براميل الكيروسين". رد مينا قائلاً: "أظن أننا ننظر إلى معجزة، يا ماما. وإلا كيف يمكنك تفسير أن النيران لم تصل للجرائد؟". أحنت ليليان رأسها للصلاة مرة أخرى. فكل الأطفال سالمون والمطبخ لم ينفجر، ويمكنهم البدء في الترميمات من الغد. قضوا النهار في تنظيف الأنقاض ووضع الأربعين طفلاً في حجرات أخرى.

في صباح اليوم التالي سمعت ليليان أحدهم يقرع على البوابة. أرسلت مساعدتها عليا لترى من الطارق. أخبرتها عندما عادت أن هناك أباً ومعه طفلان أحدهما في الرابعة والآخر في السادسة. ماتت أم الطفلين، وأراد الأب أن يتركهما في الملجأ.

تنهدت ليليان في حسرة ثم قالت لعليا : "لا يمكننا أن نغامر ،

فلن يتم قبول أي أطفال آخرين الآن حتى يتم التغلب على الكوليرا". اتسعت عينا عليا وقالت: "لكنه أخبرني أن الطريق استغرق أربعة أيام مشياً على الأقدام ليصلوا إلى هنا...". رفعت ليليان يديها وقالت: "هذا من أجل جميع الأطفال. وإلى جانب هذا، أين يمكن أن يناما؟. فبسبب النيران أصبحت أماكن نوم الأولاد مزدحمة". أجابت عليا: "حسناً يا ماما سأخبره. هل يمكنني تقديم بعض الخبز ليأكلوه في رحلة عودتهم للبيت؟". قالت ليليان: "بالطبع".

تركت عليا الحجرة. وظلت ليليان واقفة وحدها، بينما أخذت جملة "لن يتم قبول أي أطفال آخرين" تتردد في رأسها. كم تبدو هذه الكلمات قاسية، يا له من أمر غريب. فلم يسبق لليليان أن نطقت بمثل هذه الكلمات من قبل. ثم أخذت تفكر لماذا لا يتم قبول هذين الطفلين في الملجأ. ربما يكونان مريضين. لكن كل طفل معرض للمرض. فإذا رفض ملجأ مسيحي استقبال طفل في أشد الاحتياج للحنان والحب، فأين يمكن لهذا الطفل أن يذهب؟. لقد سار الأب أربعة أيام آملاً أن يجد مكاناً لولديه في الملجأ. والآن تقول له ليليان لا يوجد مكان لهما في بيت الله .

فجأة وضعت ليليان يدها على فمها. وقالت متعجبة: "ما الذي فعلته!. يا الله اغفر لي". ثم نزلت مسرعة نحو البوابة وهي

تنادي: "عليا! انتظري". لكن عليا كانت قد وصلت إلى البوابة الرئيسية. فركضت ليليان خلفها. كانت تتحدث إلى رجل نحيف جداً. وكان الصبيان واقفين بخجل خلفه. قالت ليليان للرجل وهي ترفع يدها لتحييه: "مرحباً بك، مرحباً بك في بيت الله . تعالى لتأكل، وسوف نجد مكاناً لولديك".

ظلت ليليان تصلي طول اليوم متمنية أن تكون قد اتخذت القرار الصائب كما ظلت تتصارع مع فكرة تعريضها لباقي الأطفال لمخاطرة الإصابة بالكوليرا. لكن شكراً لله ، فلقد عبر اليوم بسلام وكان الطفلان الصغيران موسى وإبراهيم يأكلان بفرح ويلعبان مع باقي الأطفال. وحوالي نصف الليل، جاءت عليا لتخبر ليليان بأمر ما. وعندما رأت ليليان وجهها عرفت أن شيئاً خطيراً قد حدث للأولاد الصغار. قالت عليا لاهثة: "موسى يا ماما، إنه مريض. عنده إسهال وقيء". سألتها ليليان: "هل حرارته مرتفعة؟". أومأت عليا بالإيجاب: "درجة حرارته أربعون". إسهال وقيء وحرارة مرتفعة كلها أعراض الكوليرا!. أخذت ليليان تنوح قائلة: "يا الله ، ماذا يمكن أن أفعل. ساعدني يا رب. عليا اتصلي فوراً بالطبيب. سأصعد لأرى موسى".

وبدون أن تفكر للحظة في سلامتها الشخصية، ركضت عبر الفناء نحو مبنى الأولاد. وعندما وصلت إلى هناك وجدت فتاتين

تغيران ملاءة السرير المغطاة بالقيء. ارتجفت ليليان. فلو كان هذا المرض هو الكوليرا، فلابد أن الفتاتين قد تعرضتا للمرض أيضاً. قالت ليليان بهدوء: "لا تلمسا الملاءة. دعوني أقوم أنا بهذه المهمة. أما أنتما فابقيا في الخلف".

نظرت ليليان لموسى وأخذت تصلي: "ساعدني يارب. أنا آسفه فقد قمت بالتصرف الخاطيء عندما استقبلت هذا الطفل الصغير في بيتنا، لكن لا يمكنني إبعاده. ساعدني الآن". وخلال ساعة حضر طبيب من المستشفى الأمريكية وأكد مخاوف ليليان. فقد أحضر موسى الكوليرا للملجأ. وأصبح مئات الأطفال الآن في خطر .

* * * * * * * * * *

الفصل السابع عشر

" واصلت أداء العمل الذي أعطاني الله لأعمل "

أخذت ليليان تراقب العامل وهو يرسم دائرة بيضاء على بوابة الملجأ. ونقلوا موسى لمكان العزل بالمستشفى لكنه مات في غضون ساعات. وصل مكتب الصحة للملجأ وأخذ يعمل في تعقيم كل مباني الأولاد وتعقيم ليليان والبنات الأخريات. وعزلوا إبراهيم أخا موسى. أخذت ليليان تصلي وهي تنتظر ظهور علامات المرض عليه هو أيضاً لكن لم يظهر شيء عليه. برغم أن مرض الكوليرا سريع العدوى وأن موسى كان على اتصال بباقي الأطفال، لكن لم يصب أي طفل بالمرض.

تم القضاء على مرض الكوليرا. وفيما عدا موسى لم يصب أي طفل بالمرض. ومرة أخرى، أخذت ليليان تشكر الله لأنه حفظ الأطفال سالمين. استغرق الأمر ستة أشهر حتى يختفي الوباء تماماً من مصر وتعود الحياة لمسارها الطبيعي.

كانت السنوات الثلاثة التالية هو وقت توسع مدهش في الملجأ. فتم بناء مستشفى صغيرة، وبها وحدة عزل. وتبرع رجل من فيلادلفيا بمبلغ من المال لبناء كنيسة جميلة تسع ألف فرد .

وتم بناء مبانٍ جديدة للنوم وحظائر لوضع الخمسة والعشرين بقرة التي يمتلكها الملجأ وتستخدم في إنتاج اللبن. وأفضل الإنجازات جميعاً بالنسبة للأطفال هو حمام السباحة الضخم الذي تبرع ببنائه موريس دوس بك، وهو رجل مصري غني.

جاء محافظ أسيوط لزيارة الملجأ وكتب في دفتر التشريفة: "لقد دهشت بشدة اليوم أثناء زيارتي لملجأ ليليان. إنه أكثر الملاجىء التي رأيتها ضخامة. ويمكن تلخيص نجاح عمل ليليان في ثلاث كلمات: الإيمان، والأمانة، والصبر".

في عام ١٩٥٣ قام رئيس الوزراء المصري بزيارة الملجأ. وكتب: "لم يتسبب شيء في إسعادي مثل ما رأيته اليوم. فكأنني كنت أحلم بجنة إنسانية، ووجدت اليوم الملجأ حقيقياً تماماً كما تخيلته دائماً". وبعد زيارته للملجأ بفترة قصيرة أصدر قراراً بإعلان "يوم ليليان تراشر" يوماً قومياً يتم فيه جمع تبرعات للملجأ. وبرغم أن هذه الإضافة حملت الكثير من الإثارة خاصة بعد أن أصبحت ليليان شخصية معروفة، إلا أن نظرها لم يبتعد أبداً عن هدفها. فلم تهدف إلى بناء مبانٍ أكبر بل تقديم فرصة لأفقر الأطفال للنمو والنجاح في بيئة أسرية مسيحية.

لم يكن شيء يسعد ليليان أكثر من قضائها وقت مع عائلات أبنائها وأطفالهم. وفي إحدى رحلاتها للقاهرة قضت ليلة مع

فهيمة إحدى بناتها المتزوجات. وعندما انتشر خبر زيارة ليليان لها، امتلأ البيت سريعاً عن آخره بأسر الشباب؛ الأزواج والزوجات وأطفالهم. كانت الدموع تنساب من عيني ليليان وهي تجول ببصرها في الحجرة. فهناك وليم، ابن رجل أعمى، وقد أصبح رئيساً لإحدى المدارس الراقية. وصار فيليب مدرساً في الإسكندرية. وأعلن زاخر بفخر أنه حصل مؤخراً على شهادة البكالوريوس من جامعة القاهرة. وكان هناك إدوارد، ويعمل مصمماً للطائرات. وغيرهم كثيرون في كل حجرة. كان كل شخص منهم لديه قصة يرويها، وهي تعرف كل هذه القصص. والكثيرون منهم لديهم أطفال. وأصبح في مصر الآن مئات من الأولاد الصغار يحملون اسم تراشر، ومئات البنات باسم ليليان.

عندما عادت إلى أسيوط، كان في انتظارها ممثل من كنيسة جماعة الله، جاء ليسجل قصة حياتها. كانت ليليان تمانع في الحديث عن نفسها، لكنها كانت تشتاق للكلام عن الأمور الرائعة التي صنعها الله معها عبر السنوات الماضية. وفي النهاية سألها: "ما هو أعظم شيء تحاولين أن تفعليه في مصر؟". فكرت ليليان للحظات. لم يكن هذا السؤال من النوع الذي اعتادت الإجابة عليه. رجعت بأفكارها للوراء إلى المنزل المزدحم في القاهرة وأجابت: "خلال الأربعين سنة الماضية كنت أحاول أن أعيش

بطريقة معينة تعطي شيئاً ملموساً لهذا الجيل الجديد. كنت أريد أن أعطيهم نموذجاً للشخصية المسيحية الحقيقية. فقد عشت في هذا الملجأ كل يوم بالطريقة التي كنت أريدهم أن يعيشوا بها في منازلهم على أرض مصر. حاولت أن أريهم كيف يمكن أن يبتسموا في الأوقات الصعبة. وفي كل ساعة في النهار والليل كنت أبذل قصارى جهدي لأعيش أمامهم الحياة التي أريدهم أن يحيوها أمام أصدقائهم الآخرين". ثم فردت يديها لتؤكد على ما تقوله: "أردت أن أنقل لهم ***حياة***، يدركون فيها أنه إذا أمكنهم الثقة بالله، فسيصبح كل شيء على ما يرام. قمت بأداء أفضل ما عندي لأعلمهم أن يكون لديهم إيمان بالله حتى يمكنهم مواجهة الحياة بقلب مليء بالثقة. حاولت أن أعرفهم بقوة الصلاة، مع رفقائهم حتى يعلموا غيرهم أن يجدوا الطريق الصحيح".

لم يتم نشر قصة حياة ليليان فقط، بل كذلك قامت جماعة الله بعمل تسجيل وثائقي عن حياتها تحت عنوان "أم النيل". وكان للتسجيل الوثائقي وقع كبير في الولايات المتحدة. وبرغم أن ليليان كانت تشعر بالخجل بسبب ازدياد شهرتها، إلا أنها كانت تقدر فرصة معرفة آلاف الناس بالعمل الذي تقوم به في مصر. ففي عام ١٩٥٦ كانت نتائج هذا التسجيل الوثائقي مذهلة. فقد تدفق المال على الملجأ بصورة لم تحدث من قبل. وكنتيجة لذلك

استطاعت بناء حجرة طعام أكبر وأضافت طابقاً آخر للمستشفى. وأفضل ما حدث، كما كانت تشعر ليليان، هو إرسال غسالة ملابس أوتوماتيكية من أمريكا، تبرعت بها كنيسة في باي تاون بولاية تكساس. وتمكنت ليليان من توصيل الكهرباء وسخان المياه في حجرة غسيل ملابس الأطفال والرضع حيث تم وضع الغسالة. وكان الغسيل يحتاج إلى عدد كبير من الأرامل، يعملن طوال اليوم، ست مرات في الأسبوع. وباستعمال الغسالة الأوتوماتيكية تم خفض عدد العاملات بدرجة كبيرة.

كما أقامت مبنى آخر، وأسمته مبنى هيرمان سادلو، وهو اسم الشخص الذي أنتج التسجيل الوثائقي "أم النيل". وهو يكفي لسكن خمسين طفلاً من عمر سنة وسنتين.

وبنهاية عام ١٩٥٦ حدثت كارثة أخرى لمصر. فبعد إعلان الرئيس الجديد المنتخب جمال عبد الناصر أن قناة السويس هي ملكية مصرية، احتلت إسرائيل شبه جزيرة سيناء في أكتوبر. وحشدت بريطانيا وفرنسا قواتهما ضد مصر لاستعادة قناة السويس. وبالتالي أصبحت البلاد كلها في أزمة كبيرة. وعندما أغرق عبد الناصر أربعين سفينة في القناة ليغلقها، بدا الموقف أكثر تعقيداً وأصبح خارج السيطرة، حتى تمكنت الأمم المتحدة من الضغط لوقف الحرب. وانسحبت كل الحشود العسكرية من

مصر. وفي مارس عام ١٩٥٧ أعيد افتتاح قناة السويس، لكن هذه المرة أصبحت تحت سيطرة مصر.

وخلال هذا الوقت كانت هناك نقطة واحدة مضيئة بالنسبة لليليان. فأختها جيني، التي كانت تزور مصر من وقت لآخر، قد باعت ممتلكاتها في كاليفورنيا وعادت لتعمل مع أختها بصورة دائمة. وهذا أسعد ليليان كثيراً، فقد بدأتا معاً في إنشاء الملجأ، وها هما الآن تقضيان ما تبقى لهما من العمر في خدمته معاً.

وفي عام ١٩٦٠ تلقت ليليان دعوة خاصة للعودة للولايات المتحدة لحضور سلسلة من المؤتمرات لمدارس أحد كنيسة جماعة الله ، والتي سيعقد أولها في مدينة سبرينجفيلد بولاية ميسوري. وبرغم أنها كانت تكره أن تترك أطفالها، إلا أنها فرحت بتوفر فرصة لزيارة أصدقائها في الولايات المتحدة والتي كانت تشعر أنها ستكون الأخيرة. إلى جانب أنها ستترك مسئولية البيت في يد القس جورج أسعد، الذي قاد العمل بأروع صورة.

لم تكن رحلتها للولايات المتحدة هذه المرة رحلة بحرية مثل رحلاتها السابقة. فقد أصبحت الطائرات التجارية تعبر المحيط الأطلنطي وكانت ليليان مسرورة لأنها ستركب إحدى هذه الطائرات. فرحلة الطائرة سريعة ومثيرة بالنسبة لليليان. وفي خلال ساعات قليلة وجدت نفسها في سبرينجفيلد. وكعادتها كانت

تلبس فستاناً أسود اللون وتحمل حقيبة صغيرة غير ممتلئة.

وفي صباح اليوم التالي لوصولها، كانت ليليان تتحدث أمام الحاضرين في هذا المؤتمر، وتحكي لهم قصصاً بسيطة عن الأطفال الذين جاءوا إليها من عدة سنوات ماضية وما يقومون به في الوقت الحالي. وكان افتخار الأم ينعكس على حديثها. وفي نهاية حديثها، كانت تضع أمام الحاضرين التحدي لبدء ما يشعرون أن الله يريدهم أن يفعلوه بدون الانتظار حتى يصبح كل شيء جاهزاً أولاً. وأنهت كلامها بتوضيح أصبح فيما بعد معروفاً باسم " قاعدة قوالب الطوب الثلاثة". قالت لهم: "بمجرد أن تعرفوا أنها إرادة الله، ابدأوا في الحركة!. في إحدى المرات في الملجأ بدأنا العمل في بناء مبنى جديد بمجرد أن أصبح لدينا ثلاثة قوالب من الطوب".

ومن سبرينجفيلد طارت ليليان إلى هوستن بولاية تكساس. وكان فيليب هوجان مدير البعثات الخارجية لكنيسة جماعة الله في صحبتها. وفي هذه الليلة ذهبت لتبيت في فندق فاخر في قلب مدينة هوستن. قال لها فيليب: "ها قد وصلنا يا آنسة تراشر. أتمنى أن تكوني مرتاحة في هذا المكان". لكن عندما قرأت المعلومات الموجودة خلف الباب لم تشعر بالراحة أبداً. فقد عرفت أن تكلفة الحجرة في الليلة تبلغ ثمانية عشر دولاراً.

فكرت ليليان وهي تجلس على مؤخرة الفراش "ثمانية عشر دولاراً. ماذا يمكننا أن نشتري بالثمانية عشر دولاراً؟". وفي النهاية لم تستطع ليليان أن تبقى في المكان لوقت أطول. فاتصلت بفيليب في حجرته وقالت له: "من فضلك قابلني في الردهة". نزل فيليب هوجان ليجدها واقفة ومعها حقائبها وقبعتها في يدها. قالت له: "لا يمكنني النوم في هذه الحجرة." سألها فيليب: "لماذا؟. هل في الحجرة شيء ليس على ما يرام؟. يمكنني نقلك لحجرة أخرى". هزت ليليان رأسها وقالت: "لقد ألقيت نظرة على المعلومات التي خلف الباب وعرفت كم تتكلف. يا أخ هوجان، هذا المبلغ من المال يمكن به شراء لبن للأطفال في الملجأ. أنا آسفة، لكن لا يمكن أن أبيت ليلة واحدة في حجرة إيجارها يساوي ثمن شراء لبن لأطفالي". أجاب فيليب: "هل أنت متأكدة؟. فنحن نريد لك أن تكوني في ارتياح". قالت له: "سأرتاح في أي مكان آخر غير هذا الفندق الفاخر". ضحك وقال:"حسناً. فلدي أصدقاء في المدينة. يمكنني الاتصال بهم وتدبير إقامتك معهم". قالت:"أرجو أن تفعل هذا".

قضت ليليان ما تبقى لها من الوقت في الولايات المتحدة في بيوت المسيحيين. ولم يتكرر خطأ الحجز لها في فندق.

وباقتراب نهاية رحلتها، شعرت بدوار شديد، فأكد الطبيب أنه

بسبب ارتفاع ضغط الدم. فقررت أن تقطع رحلتها في الأسبوع الأخير وتعود إلى أسيوط. لم تتحسن حالتها. وبعد عودتها بعدة أسابيع بدأت صحتها في التدهور. وبرغم تدهور صحتها كانت تصر على رعاية الأطفال الصغار بنفسها بقدر الإمكان. فكانت عادةً تجلس على المقعد الهزاز في الفناء، ويلتف الأطفال حولها يتلون على مسامعها آيات من الكتاب المقدس أو يمتعونها بحركاتهم البهلوانية الرشيقة. وفي أيام الآحاد كانت تحب أن تجلس في الكنيسة تراقب أبناءها وهي مملوءة بزهو الأم. وتتراوح أعمار الأطفال ما بين الرضع وحتى البالغين.

في أحد الأيام بعد الكنيسة، جاءها زائر وسألها إذا كانت قد شعرت في أحد الأيام أنها قد تعبت من عملها. أجابت ليليان والتي أصبحت تبلغ من العمر سبعة وسبعين سنة قائلة: "بكل تأكيد لا. ففي كل مرة يأتي طفل جديد للملجأ، كنت أشعر بسعادة بالغة. برغم أنه قد يكون متسخاً وهزيلاً ومريضاً ويتيماً. كنا نقبله ونعطيه حماماً ساخناً ونطعمه بزجاجة من اللبن، ونضعه في مهد جميل ونظيف، حيث يمكنه أن يخلد إلى نوم هادىء ومريح. فهؤلاء هم أغلى ما عندي في الحياة. كنت أصلي لهم. وعندما كانوا يحضرون طفلاً في ثياب بالية متسخة، كنت أتخيل كيف ستكون حالته بعد ثمانية أو عشرة أعوام إذا لم أقبله في

الملجأ، وكيف سيصبح إذا رفضناه. ولذلك لم أكن أجرؤ على رفض أي طفل. أشكر الله أننا لم نضطر إلى رفض أي طفل كان في احتياج إلينا. ولم أكن سعيدة في حياتي مثلما أنا سعيدة الآن بالعمل الذي أعطانيه الله. ولم أكن لأبدل العمل الذي عملته والذي مازلت أقوم به بكل ثروة الولايات المتحدة إن أمكن. فهذه هي ***الحياة*** ؛ أن تساعد من يحتاجون إليك ومن ليس لديهم غيرك يعتني بهم ".

لم تتحسن حالة ليليان الصحية. وفي بداية شهر أكتوبر عام ١٩٦١، دخلت المستشفى في أسيوط، حيث قال الأطباء إنها في طريقها للموت. وفي يوم الأحد السابع عشر من ديسمبر من عام ١٩٦١ استقبل الملجأ طفلين جديدين. وهو نفس يوم وفاة ليليان تراشر. وكانت أختها جيني إلى جوارها. كانت ليليان قد قضت عشرة أسابيع في مستشفى أسيوط بسبب أزمة قلبية. وقال الأطباء إن جسدها بدأ في التهالك في سن السابعة والسبعين.

تم ترتيب إجراءات الجنازة بسرعة. فتبعاً للقانون المصري لا بد من دفن جسد المتوفى قبل حلول الظلام. حمل الجثمان عربة يجرها حصان ببطء في شوارع أسيوط خلف الملجأ. وكان المسيحيون والمسلمون معاً يبكون أثناء مرور جثمان ليليان أمامهم. وكان الأطفال المصدومون قد تراصوا في صمت

عبر الطريق من البوابة للداخل. أقيمت جنازة مهيبة في كنيسة الملجأ حيث كانت ليليان تعظ من عدة أسابيع مضت. ودفنوا جسد ليليان في مقبرة الملجأ، وسط أطفالها الذين أحبتهم بشدة.

ولمدة أسابيع بعد وفاة ليليان، كان الأبناء الذين كبروا وتركوا الملجأ يأتون ليقدموا تحياتهم أمام مقبرة أمهم. وكانوا يبكون وهم يتذكرون محبتها لهم وإيمانها الثابت غير المتزعزع بأن الله يعتني حقاً بالأرامل والأيتام.

لم يكن أحد يعلم بالضبط عدد الأرامل والأيتام الذين اعتنت بهم ليليان، إلا أن الرقم المؤكد كان عشرة آلاف. مكث بعضهم وقتاً قصيراً في الملجأ والبعض الآخر عاش حياته كلها هناك.

حزن آلاف الناس في الولايات المتحدة وحول العالم على وفاة ليليان حزناً شديداً. وكتبت مقالات كثيرة في الولايات المتحدة عن حياة ليليان المبهرة. فكتب أحدهم يقول: "ليليان تراشر، والتي وصفتها الجرائد في إحدى المرات أنها أعظم النساء اللاتي عشن خارج الولايات المتحدة، يمكن تصنيفها بين أعظم الخدام الكارزين في عصرها. ففي خلال الخمسين سنة التي قضتها في العمل في الملجأ في مصر، كانت ترعى حوالي عشرة آلاف من الأطفال الذين بلا مأوى والعاجزين بل وكان بعضهم فاقدين للبصر. وقد لقبوها بأم النيل".

في أحد الأيام، قبل وقت قصير من دخولها المستشفى سألها أحدهم قائلاً: "آنسة تراشر، ما هو سر نجاح خدمة الكرازة التي تقومين بها ؟. وما هو أعظم عمل قمت به؟". أجابت ليليان بسرعة قائلة: " لا يوجد أي سر. كل ما في الأمر هو أنني واصلت ولم أهرب. واصلت أداء العمل الذي أعطانيه الله لأعمل".

* * * * * * * * * *